مدافن الموت

الكتاب: مدافن الموت

الكاتب: الدكتور أسامة جمعة الأشقر

الطبعة الأولى - ١٤٣٢هـ/٢٠١١م

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: مُؤَسَّسَةُ فلسطين للثقافة

سورية - دمشق - ص. ب: ١٣٠٢٩
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢
فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الإلكتروني: thaqafa@thaqafa.org
موقع المؤسسة على الإنترنت:
www.thaqafa.org

صفحات
للدراسات والنشر
www.darsafahat.com

تصميم الغلاف والإخراج:
م. جمال الأبطح

مدافن الموت

الدكتور أسامة جمعة الأشقر

رواية

قد تحمل الشخوص أسماء قوم كانوا في سياق تاريخ البلد، على مر عصوره السياسيّة الحديثة، وقد تتشابه الأحداث مع حوادث حصلت قديماً أو حديثاً فيه، لكنني أعلمُ أن كل حدث وكل شخص مذكور هنا لم يكونوا في زمن واحد، وإنما تفصلهم عقود عن الشخوص والأحداث المحبوكة في الرواية، وأعلم أيضاً أنني أعدتُ تركيب أحداث على أخرى وأشخاصٍ في آخرين، وجغرافية على أخرى، وأسبغتُ عليها من خيالي ومعرفتي، فلم يعد الشخص هو الشخص، ولم يعد الحدث هو الحدث.

وليست الرواية سيرة ذاتية لأحد بعينه بل هي مسارات مركبة لأشخاص كثيرين تخيلتهم أو قرأت عنهم أو سمعت بهم أو عرفتهم.

في بيته الصغير تحت شجرة التوت الباسقة المترعة بحباتها البيضاء المغبرّة في ظاهر القرية احتشدت القرية الحزينة خلف نعشه الخشبي لتودِعه جوف الأرض التي لم تألف وقْع قدميه عليها، ففتحت له قلبها بمساحيَ قاسية، يسكن سرير نهايته بوداعة لم تكن شيمة حياته.

كان رحيله عادياً لم يشغل القرية رغم أنه كان ذاكرةً حية، ووثيقة محفوظة، تختفي وراء صمته الغامض وابتسامته التي ترتسم على نصف وجهه، ويبقى في نصفه الآخر كلمات مضمومة إلى بعضها تحكي غير الابتسامة.

كانت أمانة القرية تحفزهم أن يشيعوا هذا الميت الغريب في قريتهم فأودعوا ميراثه الزهيد الذي لم يطمع فيه أحد في خزانة خشبية بمستودع غرفة مؤذن الجامع في صحبة طبعة حجرية قديمة صفراء من منهاج الطالبين وعدّة السالك ورياض الصالحين وتجويد التلاوة والحِرَز الحصين ومصاحف قديمة ممزقة؛ وأوراق قديمة كانت ملفوفة بحبال نحيلة ذائبة في درج طاولته، احتواها في خريطة قماشية زرقاء كتب على ظهرها بخط رصاصي باهت صغير ينزوي في زاوية الورقة «خاص»، وكتب

بخط مائل أصغر أسفل عنوانه جملة غريبة: «التابوت لم يكن هناك، هم كانوا فقط!!».

وها قد مضت سنون طويلة على رحيله، وباتت أوراقه اليوم صفراء بالية تذوب في يد لامسها، وتهوي أمام أنفاس عابرة تتسلل من كسور زجاج الخزانة الخشبية، لكنها باتت تحظى اليوم أيضاً - وهي الأوراق القديمة المهترئة المتطايرة - بإجلال العيون فلا تبادر إلى لمسها خشية تبخّر بركةِ وليٍّ صالحٍ قد يكون لمسها يوماً، فغدت أشبه بالكنز المدفون الذي تناسته السنون، وتراكمت عليه غربات الجفاء الذي يعقب الغَيْبة؛ ولكنّ اختلاسَ شابٍّ عابثٍ غيرَ أمّيٍّ من بيت المؤذن أخرج الدفائن من مدافنها، وبسطها أمام سِكّة حياتها.

الرحلة

في حي «البوسطة» بمدينة بحري على شاطىء النيل الأزرق غربي مدينة الخرطوم: أنا «عارف» معدّ البرامج والمشرف على الرحلة، و«سيف الدين» المصوّر الحربي المحترف، و«منقو» الشاب الجنوبي الذي سيكون دليل هذا الفريق في تصوير حياة القبيلة وطقوسها في أعالي النيل والغابات الاستوائية السوداء وروافد النيل المختبئة وراء المجهول مما لم تَعْبُرْه بعدُ عيونُ المكتشفين.

كنا نعمل في فريق تصوير «أمواج»: شركة إنتاج تلفزيوني محلية تمدّ هيئة الإذاعة البريطانية (bbc) بأفلام وثائقية ومواد تلفزيونية وفق عقود خاصة عبر شركة فنية خليجية تسوّق إنتاجنا وإنتاج غيرنا بعد أن تنتخب من مئويات ساعات التصوير الطويلة بضع ساعات ممتلئات.

التقينا في هذا اليوم الجديد على مائدة فطور واسع الشعبية والانتشار فهو الضيف الدائم في موائد الشوارع، وتحت الأشجار وبين الظلال، وأسفل أكياس الخيش المنشورة على سقوف أعمدة شجيرات الخلاء

النحيلة: ماء الفول المدمس!! مفتوت عليه خبز «السمّون»، وللنكهة: نصبّ عليه مرقَ جبنٍ أبيض يسبح فيه فتاتُ جبنٍ انفصل من القطع الكبيرة أثناء غَرْف المرق من جوانب الصفيحة «التنكة»، فَرَك عليها سيف الدين - صديقنا الجاد - أقراص الفلافل (الطعميّة) الذهبية الخالية من البقدونس الأخضر، اشتراها من تلك التي يبيعها طالبو الرزق في أكياس نايلون صغيرة حيث يفترشون مقلاتهم الكبيرة المكتنزة بالزيت القديم المحروق في حارات العاصمة الشعبية والراقية أيضاً وأمام المخابز وفي الأسواق الشعبية، وعند محطات القطارات وحافلات الأقاليم المسافرة عبر الصحراء الشاسعة.

إنه ليس كريهَ المذاق، فقد أَلِفتُ هذا الطعام وقضيت معه تجاربي الشابة، وغسلتُ معدتي مراراً في المستوصفات منه، عشت معه في حياتي الجامعية بينما كنت أحضّر دراساتي العليا في جامعة الخرطوم أعرق جامعات البلد وأقدمها، ولأنني أحبّ أن أظهر أمام رفاقي بسودانيّتي فقد كنتُ أبادر قبلهم إلى فرْش الشطّة الحمراء الحارّة المغطّسة بمعصور الليمون الصغير «البنزهير» على وجه الطبق البلاستيكي الأزرق العريض الذي بدت سطوحه المتكسّرة الغليظة كقطعة كوكب عجوز تشاهده من فتحة مجهر فلكيّ مكسور، فيغدو ذا طعم حاذق حرّاق بطعم الشمس الاستوائية الحمراء، يعطي الوليمة مذاقاً لا تحسّ بلذاذته إلا عندما تحترق أهداب لسانك بمسّ الحريق الحمضيّ.

تدور المناقشات المقطوعة بين فراغات أسنان «فطور العمل» تقطّع تفاصيل الرحلة المرتقبة إلى أدغال الغابات الاستوائية ومستنقعاتها وأنهارها وأطرافها الصحراوية التي تخترقها الأنهار التي يسميها الناس هنا «البحور» فننقطع عن التفاصيل نحكي عن بحور النيل وبحيراته، ويجرّنا الشاي الحلو بالزنجبيل إلى أصالة هذا التعبير في اللغة العربية وأنه دليل على عروبة السودان وقبائله عندما يحاججهم الناس بسمرة الوجه التي يجعلها بعض متطرفي الإفريقانية نافية لعروبتهم.

لم يكن صديقنا «منقو» يشتغل بهذا الجدال العرقي المُترَف فهو «محسوم» العِرْق، لونُه الأزرق اللمّاع يخرجه من الخيارات المتعددة، ويؤكد انتماءه لإحدى السلالات الزنجية النيلية القديمة، و«شُلُوخُه» التي تَحفِر باستطالةٍ أنحاءً من جبهته وخدّيه الأيمن والأيسر تلصقه صَلِيبةً بإحدى القبائل الاستوائية التي تعيش في تلك الأدغال، واسمه الذي يعود إلى أحد الآلهة المحليين في الوثنية النيلية الزنجية يبدّد أي تشكيك في أصالة دمه الإفريقي، إلا أن لغته العربية العامية المسمّاة بـ «عربي جوبا» تجعله عربي اللسان، وهو أمر اعتاده، ولا يجد فيه حرجاً كبعض المثقفين الجنوبيين من خريجي المدارس الكنسية الجنوبية الذين اختاروا الإنجليزية لغة لهم، لكنهم لا يملكون في نهاية الأمر سوى الاستسلام لقوة العربية، فالعربية في قبائل جنوب السودان وغربه وشرقه وشماله لغة التفاهم الأساسية بين أكثر من مائة وخمسين رطانة متداولة في هذه

القارة المسماة اليوم بالسودان.

كثرة ملاحظات سيف الدين كانت تحرم لسانه المتحرك من ابتلاع لقيمات كانت لتكون من نصيبه لو مال إلى الصمت قليلاً وأفسح المجال لنا، أما الغانم الأكبر بيننا فهو «منقو» الذي لم يكن يشارك في تلك الجلسة إلا بابتسامته المنتفخة من أثر الطعام المتكاثر في فمه.

رغم خبرتي البدائية في الرحلة إلى الأدغال إلا أنني كنت أدرك صعوبة المهمة التي أنوي القيام بها مع رفيقيّ، لاسيما أن تلك المنطقة هي منطقة عمليات حربية، وتنتشر فيها العصابات والمجموعات المسلحة من المتمردين على الدولة من قبائل مختلفة سودانية وإفريقية قادمة من دول محيطة بالسودان، تتمرد على دولتها، وتتخذ من الجنوب السوداني الكبير مقراً لعملياتها، وكنت أدرك أنني بحاجة لفريق حماية خاصة يرافق هذا الفريق الصغير، وهو أمر لم يكن صعباً بعد أن تولاه عني سيف الدين الذي تمكن عبر علاقاته العسكرية القديمة عندما كان مراسلاً حربياً في تلفزيون بلاده من إقناع بعض قادة الجيش الرسمي في مناطق العمليات - والذين يراعون العلاقات الاجتماعية كعادة المجتمع السوداني القَبَلي - بإرسال إحدى الحاميات المحلية المسلحة بأسلحتها الخفيفة معهم بعيداً عن الروتين الرسمي وتعقيداته مقابل «شوالات

مودة وترضية» من الذرة المطحونة و«جالونات» من الزيت الأمريكي من تلك التي توزع ضمن مساعدات غذائية عبر مؤسسات الإغاثة الغربية التنصيرية أو هيئات الإغاثة الأممية والأجنبية والتي تتحرك بموافقة الحكومة السودانية تارة، وبالالتفاف عليها تارات كثيرة من ناحية كينيا ويوغندا وإثيوبيا وإفريقيا الوسطى.

أكملنا استعداداتنا في هذا اليوم، فها هي الأجهزة والكاميرات وشرائط الأفلام والأمتعة الشخصية ومولّد الكهرباء الصغير الذي يشحن بطاريات كاميرات التصوير، وأدوية الوقاية من الملاريا ومراهم الوقاية من لسعات الحشرات، والحقن المضادة لسموم الثعابين والأصَلات، والأسلحة البيضاء الخفيفة الصغيرة منها والكبيرة... استعدادات كاملة.

الخطوة التالية الموافقة الرسمية على الصعود في إحدى طائرات الشحن العسكرية المتجهة إلى جوبا، وهي الطريقة الوحيدة للوصول إلى الجنوب من فريق تصوير فقير يناضل بتجهيزاته الغالية الثمن في منطقة تزدحم بالموت والفقر.

كان أمراً عسيراً ومرهقاً، ويتطلّب الكثير من الوقت الذي يضيع أكثره في العلاقات السريعة التي تُبنَى وتُكسَر، ولكن جرى تحصيل النتيجة المرهقة أخيراً على يد سيف الدين - وعلى غير العادة هذه المرة -، وقد

يكون لوجودي معه دور، فأنا الشاب الفاتح البشرة سألفت الأنظار وأفتح أبواب السؤال السياسي المفتوح من الأمريكان والأوروبيين، لاسيما أنني عربي!! ولا أحمل الحصانة الغربية أو التبشيرية!! في الوقت الذي تنهال فيه التهم الدولية على ذلك البلد الفقير بأنه يؤوي جماعات إرهابية من هنا ومن هناك!.

جاءنا الرفضُ - بفضلي - وبدأنا رحلة العودة من جديد، وهذه المرة حاملين معنا شهادات الـ «بي بي سي» فسبقتنا الموافقة إلى شركتنا، ولكنها الموافقة التي تجعلك متأخراً لأنها جاءت متأخرة!!.

وعلى كل حال فالتأخير هنا سيكون حاصلاً لا محالة فلِمَ نتأخر في استدراك ما فاتنا من أيام ثقيلة صعبة!.

على أيام متتالية حملنا أجهزتنا ومعداتنا وأمتعتنا إلى بوابة خلفية في مطار الخرطوم عند شارع إفريقيا العجوز، وفي كل دخول نفتح جيوبنا للسيد الجندي ليسمح لنا بمرور مؤقت وبحقيبة واحدة، حتى انتهينا إلى آخر حمولة فدخلنا بها وبكل متاعنا إلى مستودع طائرات كبير ذي سقوف تنتصب فيها أعمدة حديدية تتعلق بها بقايا الزينكو الصدئ، و تتبعثر في أحشائه بقايا طائرات قديمة هَوَت، أو تعطّلت، أو مضى عمرها، وتفككت أجزاؤها المهمة فغدت هياكل ميتة لم تُطرح خارج الأسوار؛ ويرافقنا في صالة الانتظار حشد كبير من أبناء الجنوب يتجهون صوب مدينة جوبا في إطار مشروع أممي لعودة النازحين.

كنتُ أفكر بقلق يحملني على السؤال!!:

- كيف ستحمل الطائرات كل هؤلاء؟!!... إنهم يزيدون عن خمسمائة؟!

بينما كان سيف الدين ومنقو على خبرة قديمة بهذه الرحلات العجيبة فاستغرقا في التهامس والضحك عليّ، وتندّر سيف الدين تُصاحبه ابتسامة زرقاء ساخرة، وقد بدت نواجذه البيضاء النقية الصافية:

- هذا أوتوبيس شيّال وليست طائرة!!، وستقف فيه على قدميك، وتخيّل الأمر عندما لا تجد مقعداً تلقي عليه ظهرك، أو مضيفة تقدم لك الطعام والشراب بلطافة وتهذيب، أو حتى هذا الطعام!!

ولم يلبثا أن شدّهما صوتٌ من خارج المستوع فتسللا بسرعة وصيحاتي تلاحقهما!!:

- إلى أين؟! قد تفوتنا الطائرة إذا حضَرتْ وأنتما بعيدان!!

تغامزا ضاحكين، وسخر سيف الدين قائلاً:

- لا تخف مما تخاف يا صاحبي فذيل الطائرة طويل وهناك سعة في الوقت وفي المكان أيضاً، وسنعود قبل أن تحضر الطائرة!!.

- يا الله!!! ما هذا!!

مضت ساعة، ومضت أخرى، ثم مضت ساعة ثالثة... وضجيج الركاب من حولي يتعالى، فالطائرة لم تشرّفنا بالحضور بعد، ولم يأت صاحباي أيضاً، وتسارعت نبضات قلبي المأزوم، وتحوّل قلقي إلى شوارع ضيقة مزدحمة ترتسم على قسمات وجهي المحمرّ من الحرّ والحيرة،

وزاد منه نظرات العجائز الزرقاوات اللواتي لم يرين أبيضَ بشرةٍ عن قرب كما يرينه الآن فكانت تتفحصني هذه العيون الغائرة المتهدلة التي لا توحي بالأنس أو الراحة...

- آهٍ! ماذا أفعل الآن؟ عليّ العودة إذن قبل أن أتورط، فأنا أعرف الوعود هذه التي تتمدد وتسترخي كما تتمدد الرمال في الصحراء إلى غير نهاية!!

بعد دقائق معدودة دقيقة تتلوها دقيقة بتثاقل من الغضب والقلق والاضطراب ظهر سيف الدين ومنقو يجران كيساً أسود وراءهما.

- الحمد لله!!

ها قد عدتما! لماذا التأخير؟ كدتُ أرجع، وتعرفون قراري إذا مضى فإنه لا يتغير!!

اعتذر سيف الدين:

- الرحلة طويلة وقد نجوع في الطائرة، لذلك اشترينا لك بعض شطائر الطعمية والفول وبعض بسكويت «البركة»، ثم بحثنا عن الكيس الأسود حتى لا يعرف الركاب أننا نحمل طعاماً فيضيع منا بالطلب الجميل لاسيما أننا نعرف عنك الحياء وعدم قدرتك على رد الطلب.

- لا بأس إذن لكن لا تفعلا شيئا إلا بعد إعلامي فرحلتنا تحتاج إلى الاجتماع والتنسيق الدائم وهذه الأعمال تفسد سياق الترتيبات وتغيّر الخطط! - قلتُ بجديةٍ تضغط على تغضّنات جبهتي -.

كان موظفو المستودع في غفلة عن الركاب وكأن وظيفتهم الأساسية كانت تتعلق فقط بصحبة الموجودين إلى دورات المياه القذرة وإعادتهم منها، وكلما سألناهم عن موعد الطائرة أجاب أحدهم ببرود:

- لم تتصل بنا الطائرة!

أجاب باردٌ آخر:

- عندما تهبط تكون قد وصلت وعندها يمكنك أن تركب!!

انفجر صوتي بغضب لمّا مضى كل هذا الوقت البارد دون جواب:

- كيف لا تعرف؟! أهي طائرة أم حمار؟ ألا توجد وسائل اتصال؟

لكن الموظفين كانوا مثالا للبرودة الناضجة عندما يطرحون عليك تعليقهم الثقيل بعد عشر ساعات من الانتظار:

- لماذا أنت مستعجل؟ الناس تنتظر ثلاثة أيام وأربعة وأنت تملّ من بضع ساعات؟

عند ذلك عرفت أن هذا الوضع سيكون سيئاً جداً، وأننا بحاجة حقاً لحقنة صبر إفريقية حارة، مع «تحاميل» برودة أعصاب كبيرة وكثيرة – وهو الحال الذي اعتاد عليه سيف الدين، ولم يعد يكترث له منقو أبداً –، فانطوينا على بعضنا تحت جناح طائرة هنغارية قديمة يبدو أنها كانت تستخدم لرش المزروعات تعود للحقبة السوفييتية الستينية حيث كان التيار الشيوعي يتمدد بقوة في تلك الأنحاء، ولكننا لم نكن وحدنا تحت هذا الجناح المكسور فقد كان الركاب المفترضون يحتلون

كل فراغ في المستودع، ويتمددون بثيابهم المصفرّة على الأرض الإسفلتية المغبرة، التي تتكاثر فيها بقع الوقود السوداء وبرك الزيت المحروق، ولم يكن في اليد حيلة!! فهي وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى هدفنا بتصوير مشاهد الغابات الاستوائية البِكر التي لم تكتشف بعد!

كان الانتظار الثقيل يذكرني بالوقوف على الحواجز الإسرائيلية لساعات طويلة تستنزف منا صبرنا وطاقتنا، بينما ينظر إلينا الجندي الإسرائيلي ضاحكاً مستهزئاً ويروّح عن نفسه بشتمنا أو الصراخ في وجوهنا للوقوف تحت مطر الشتاء أو شمس ظهيرة الصيف أو العبث بتقاسيم وجوهنا بينما نلوك الصبر، وتعجزنا رغبة الحياة عن الرد إلا بنظرات الغضب ونفخات التأفف.

يومان مضيا وحرارة الشمس الملتهبة والمتسللة من شقوق السقوف ونوافذ الجدران العالية تلفح وجوهنا برياح حمراء من أثر طين العاصفة الطائر مع «الكتّاحة» كما نسمّيها في السودان، وحماوة النيل الأحمر تنتشر على جلودنا ببقع دمامل حمراء صغيرة مكتنزة بالماء المغليّ في أجسادنا، حتى بلغ بنا الجهد والتعب والقرف والإرهاق النفسي والبدني مداه، فتحول بياض بشرتي إلى لون الرصاص المائل إلى البني من حمرة الحماوة، وتلونت الوجوه السمر بما يشبه الرمل الأصفر الباهت، وقد اتسخت وجوهنا وأيدينا وأقدامنا والعرق يتسرب من آباطنا وركبنا ومن تحت آذاننا، والرائحة تزداد سوءاً عندما تتعانق مع الروائح الصادرة عن

هذه الجموع التي تزايدت فجأة، وكأنها على موعد مع شاحنة المساعدات الغذائية التي يهجم عليها اللاجئون والنازحون في فوضى وازدحام.

انشغلنا بقساوة المشهد وسوئه عن ميعاد الطائرة الميمونة التي كنا نحلم بارتقاء سلالمها المعلّقة، والاستلقاء على متنها الحريري!!، فاختلطت الابتسامات بالتأوّهات بيني وبين رفيقي سيف الدين، وزادت جرعة الضحك عندي حتى سَدَّت أصوات محركات ضخمة آذاننا التي كنا نسمع بها قهقهاتنا، ثم ما لبث الصوت أن أصبح هديراً، وكأن السماء تمطر حجارة ثقيلة، أو كأن نيزكاً مريخياً يخترق غلاف المستودع المخرّق، ويُحْدِث ضجيجاً هائلا عندما قذف بأقدامه على أرضية مدرج المطار المتكسر الجوانب فابتهج بعض ممن ينتظر معنا لهذا المشهد الفضائي بين مصفّق نشوان وراقص يتمايل كتمايل غصن صغير تحت شجرة كبيرة تسدّ عنه ضوء الشمس كأنّه يبحث عن نقطة ضوء هاربة، بينما كان بعض المنتظرين يُشيح ببصره عنها وكأنه يساق إلى سجن إجباري.

تقافز الرّكاب من برك الزيت التي كانوا فيها، وطارت الروائح الكريهة في كل مكان وصارت تقفز معهم وتطوف حولنا، وكأنها سحابة غازية أحاطتنا بأيديها تكاد أن تخنقنا من فداحة انتشارها الآسِن.

هذا لا يهم الآن!

طائرة شَحن الركاب وصلت أخيراً، ولامست أقدامها الأرض أيضاً، وهي تتبختر الآن قادمة إلينا بوجهها المبرقع المدوّر المشطوف، ثم توقفت

قريباً منا مستعرِضةً بوابةَ المستودع، وما لبثت أن فتحت شفة فمها الخلفي الكبير إلى أسفل، ونزلت منها سيارات تحمل معدات عسكرية وأناس كثيرون بلباس مدني وآخر عسكري، لا أدري كيف حملتهم في بطنها هذه الدابة الضخمة، ثم نزلت منها أبقار نحيلة، ولمحنا غزالين كبيرين بقرنين مفتولين من نوع «التيتل» يتسللان مربوطين إلى سيارة شحن عسكرية على جناح السرعة مع بعض العسكر؛ يبدو أنهما صيد ثمين يجري إخفاؤه «بالواسطة والنفوذ»!! حيث إن السلطات تمنع حمل هذه الحيوانات، أو نقلها هكذا دون تنسيق مسبق وموافقات رسمية من «الحياة الفطرية والبرية».

لِمَ نأبه للأمر الآن؟!، فالمهم أننا سنسافر أخيراً، وها قد سبقَنا الركاب بالتجمهر الغوغائي عند مؤخرة الطائرة، إذ فاتتنا التنبيهات الكثيرة والتوجيهات المتكررة أنه لا توجد مقاعد وأن سعيد الحظ هو من يحجز مكاناً عند جدار داخلي أو صندوق مشحون أو كيس كبير من القنّب، فأدركنا حينها أننا سنظل في وسط الطائرة، وسنتعرض للهزّ والشقلبة دون أن نستند إلى شيء أو تقبض أيدينا إلا على قطع الهواء الذي سيصفّر معنا في هذه الطائرة القديمة التي تشبه البغل العجوز السمين.

التفت سيف الدين إلي قائلاً:

- أين منقو؟ وأين باقي أمتعتنا؟

أحسستُ بالخطر من كلماته المتعثرة، وخشيت أن يكون منقو قد ذهب بالمتاع والأجهزة لاسيما أننا لا نعرفه تمام المعرفة بل لا نعرف عنوان إقامته أيضاً إن كان له عنوانٌ أصلاً!، والدليل إليه كان رجلاً عسكرياً لا يكاد يستقر في مكان، وأنه صديق سيف الدين، لكن هذا الشعور الآثم لم يدم طويلاً فقد شعرنا بالاطمئنان عندما سمعنا صوت منقو يصيح علينا من نافذة في أقصى الطائرة:

- هنا هنا!

فعرفنا أنه تقدّمنا وحجز لنا ولأجهزتنا وأمتعتنا مكاناً متقدماً ومميزاً قرب قمرة القيادة، فتهامسنا على زيادة مكافأته لتلك المبادرة الرائعة والمفاجِئة، واستحيينا من أنفسنا على سوء الظنّ به، وكان درساً مفيداً في الثقة بالأصدقاء لاسيما في رحلة كهذه.

المهمة الأصعب تأتي الآن!!

فحتى نصل إلى ذلك الموضع المرقّه فإن ذلك يستلزم منا أكتافاً أعرض لتخوض بحر المزاحَمة هذا، وأنّى ذلك لنا ولدينا تلك الأجهزة الحساسة!!، ولكن منقو لوّح لنا ثانية من داخل الطائرة، وقد انتبهنا هذه المرة أن نافذة الطائرة مفتوحة وهو أمر يتنافى مع أدنى درجات السلامة الجوية فتقاعسنا إلى الوراء، ولم نعد منشدّين إلى عَرْض منقو السخيّ، إذ قررنا على الفور عدم الصعود إلى هذه الطائرة التي تحمل عنوان الكارثة هذا، ولم يكفّ منقو عن التلويح حتى أدرك أننا غيّرنا رأينا

دون أن يدرك سبب ذلك، وكان عليه أن ينزل من درجته الرفيعة التي منّينا أنفسنا بها إذ لعل فيها صفيحة حديد ملساء بلا مسامير مدقوقة أو مسامير نازلة علينا من سقف الطائرة... ولكننا لم نصعد على أية حال وشاهدْنا اقتحام منقو للجموع السابحة إلى الداخل محاولاً الانحياز عنهم إلى جدار الطائرة العريض، وهو يصيح ويَدْحَص برجليه ويقاتل بيديه، حتى نفذ إلينا والعرق يتصبب على وجهه الأزرق اللمّاع، وبنطاله البني وقميصه السكّري الذي يشفّ عن صدره الأسود وقد اغرورقا بالعرق المتدفق من جسده المحترق، وكأنه نبع متفجر على غفلة من الجلد المسكونةِ مساماتُه بغبار «الكتّاحة» التي أصابتنا أول مرة، بينما كانت عيناه تذوبان من جفاف مائها من لفح الهواء الحار.

وما إن وصل منقو إلينا حتى صرخ بنا برطانة تتلاحق أصواتها النافرة فلم نستطع تفكيك معانيها، إلا أننا عرفنا أنه يحتجّ علينا، وتقف مفردات لغة الاحتجاج العربية حاجزا بيننا وبينه، إذ إن المفردات التي لديه لا تتسع لتشمل تلك الكلمات البالغة القسوة، أو أنه يتعمّد ذلك ليخفي فداحة الكلمات التي يصفعنا بها، بينما نحن نقوم بتهدئته وشرحِ الأمر له حتى هدأت ثائرته قليلا، واستمع لنا ونحن نتحدث عن هذه الطائرة الكارثة، فعجِب منا أشد العجب وبدا ذلك على عينيه المقطّبتين وتدويرة شفتيه البارزتين وقال بعربيته الجنوبية:

- كل الناس تركب فيها، وما جرى ليهم شي، والطائرة بتركض في

الجو كأنها حدأة سوداء! لكن شوف...!! الطيّارة اتملَتْ، ودوروا ليكم على حتّة في صناديق الشحن وهي في «وصاخة» « ساكت»!.

كان لابد عندئذ من اتخاذ قرار سريع:

أنركب الطائرة على ما في الأمر من مغامرة أم نبحث عن بديل آخر كطائرة أخرى قد تأتي أو لا تأتي قريباً؟!

أم نذهب بسيارة مستأجرة مسافة آلاف الكيلومترات في مجاهيل وطرق غير مطروقة وخطرة وغير معبّدة وغير معلّمة بعد خروجنا من الطرق الرئيسة؟!

ولكن سيف الدين حسم الأمر وشدّنا جميعا نحو الطائرة وقال:

هذه هي الطريقة الوحيدة للذهاب هناك، وسنتدبر أمر المكان الآن مع طاقم الطائرة فهم جنود وضباط وقد عملت معهم سابقاً ونظن أن لديهم مكاناً خاصا لكبار الزوار من أمثالنا.

توقف سيف الدين مع طاقم الطائرة الواقف عند بوابة المستودع الكبير، وعرّفهم بنا وأغراهم ببعض اللقطات التلفزيونية وبعض الشكر على تقديم برامجنا الوثائقية ففوجئنا بموافقتهم على مرافقتنا لهم في غرفة قريبة من قمرة القيادة ما دمنا قد دفعنا تكلفة الرحلة مسبقاً.

ظننتُ أن هذه الغرفة التي وُعِدنا بها ستكون مثل غرف الدرجة الأولى في قطارات إفريقيا التي طالما تقافزتُ بين قاطراتها بألواحها الخشبية المتكسِّرة ومساميرها المدبّبة النافرة ونوافذها المفتوحة على المطر

والغبار، والتي يعيش فيها الإنسان والبهائم معاً وجهاً لوجه ينظران لساعات طويلة في عيون بعضهما كأنهما عاشقان بالإكراه.

كانت الغرفة على غير ما ظننا!! غرفة تخزين على ما يبدو، وجدنا فيها أرائك مريحة من شوالات الذرة ومساند فاخرة من شوالات سكر «كنانة» الأبيض الشهير، وشوالات سكر القصب الأصفر الترابي، علَونا سقف هذه الغرفة أو أرضيّتها - سواء - وثبّتنا أجهزتنا بين أكتاف هذه الوسائد الوثيرة خشية التعرض لمطبات جوية في هذه المناطق الاستوائية المتقلبة الأجواء، لاسيما أن طائرتنا الميمونة لا تمتلك أي قدرة على المناورة، ولا نظنها تمتلك إمكانيات الصمود الطويل فهي أشبه بعبّارات النيل القديمة التي تحمل الأمتعة والمؤن والسيارات والحيوانات والبشر، ولا تتوقف حتى تغرق مرة واحدة بما فيها من بشر وبضائع ومتاع دون إنذار.

دارت أصوات محركات الطائرة ونحن نشعر بأن قِطَعها الآلية تقاتل بعضها بحقد بالغ لتتحرر من هذه البراغي والمسامير التي تجذبها إلى بعضها قسراً، وتخرج أصوات هذا العراك واضحة بضجيجها وصخبها الذي سيرافقنا في هذه الرحلة الجوية الخطيرة.

السقوط!!

كانت وجهتنا إلى جوبا عاصمة الجنوب في ولاية بحر الغزال، وهي منطقة خطرة تتمركز فيها حاميات عسكرية حكومية كبيرة، وتتعرض إلى استهداف دائم من المتمردين الجنوبيين من أبناء قبيلة الدينكا وقبائل جنوبية أخرى أصغر، وهم يحيطون بها من جهاتها الأربعة، ولكن من مسافات بعيدة عن محيط المدينة النائمة في أحضان بحر الغزال أحد الروافد التي تغذي نهر النيل العظيم، ولم يفُتْنا أن البحر في لغة تلك الديار يعني النهر الفحل الكبير، وهو ليس كأنهار الشام الصغيرة أو سيول الجزيرة العربية الموسمية، ويكفيك أن السفن الكبيرة والعبّارات تمخر فيها بحمولتها الفاحشة، وقريب من هذه المدينة حدود بلدان إفريقية كثيرة التمرد واسعة الاختراقات لا تُؤمَن دروبها.

كانت الرحلة تستغرق نحو أربع ساعات مع هذه الطائرة وقد تزيد، بل تزيد عادة!! لكنها لا تنقص على كل حال إلا إذا انتقصت من أعمارنا شيئاً.

افتتحْنا الطيرانَ الصاعد بمطبٍّ جوي ثقيل ألقى بأمعائنا إلى أسفلها ثم ارتفع بها، وهكذا دارت بنا الطائرة طيلة الرحلة حتى أصبحت أمعاؤنا كالعجينة التي يرقّقها الخبّاز، فغلبنا التقيؤ والاستفراغ، وكان سيف الدين يضحك، وهو المعتاد على ركوب هذه الدابة العجوز، فكان حالنا أشبه بحال الراكب في البحر، وقد أصابه الدوار، واستبدّ به الإعياء فصار يُخرج ما في بطنه، ولا يكاد يَفرغ من قَيأةٍ حتى تغالبه الأخرى، ولم يكن ثَمّة مكان لهذا القيء من بقايا الطعميّة الخضراء إلا الفراغات المدسوسة بين الشوالات المكدّسة، ثم نسدّ موضعها بأكياس سوداء متغضّنة العُكَن نفّاذة الرائحة، تجدها بسهولة في طرقات الطائرة وبين أقدام راكبيها وأجسادهم الملقاة.

مضت نصف ساعة من الرحلة!! و لم أصدق بعدُ أنني أحلّق على متن طائرة!! فلا نوافذ تقنعني أنني أصبحت أسبح فوق السحاب، وأنني أتقافز من غيمة إلى غيمة، كما كنت أقفز في صغري على حجارة المستنقع المتراصة وراء بعضها بين الضفاف الموحلة واليابسة، ولا مُضيفات أو مضيفين يمرون علينا حاملين ابتسامتهم الباردة، ويقدمون لنا كؤوس الماء المعلبة، وأطباق الطعام والحلواء.

– آه! أريد أن أشرب يا سيف! أين أجد هذا الشراب البارد يا صديقي؟

– ابحث عنه فليس له مكان أعرفه، وقد تجده أو لا تجده! – بسخريةٍ –

– ليست مشكلة!! لماذا أشعر بالاستياء؟! لقد مررنا بما هو أسوأ، المهم

أنني أشعر بالجفاف بعد هذا الذي أصابني!!، قُم معي - رحمك الله - أنت أدرى مني بمَطارح هذه الشاحنة المغلقة، وأخشى أن أعْلَق برُمح أحدٍ من نزلاء هذه الشاحنة ولا أخلص منها!!

- الجو بارد يا صديقي ونحن في الأعالي وهذه النسمة الباردة لا تعوّض في بلادنا النارية فدعني أنَمْ، لماذا لا تسأل قائد الطائرة «الكابتن»؟

- إنها فكرة حسنة، ولم تعد الأمور غريبة فمن سيخطف هذه العجوز الطائرة على مكنستها السحرية؟!

قمت بتثاقل شديد وعينين تعصف بهما رياح صغيرة ثائرة متسللة من بين ثقوب لا تَبِين، حتى وصلت إلى باب قمرة القيادة فدهشتُ: إنه مفتوح!!، أو بطريقة أخرى: مقلوع من أصله، سلّمتُ على الطيارين، فابتسموا لي مرحّبين وطلبوا مني التفضّل بشرب الشاي الأسود معهم والذي يدوخ فيه السكّر من حلاوته، فاعتذرت لهم بابتسامة دائخة، وشكرتُهم على لطفهم، وطلبتُ كسرةَ ماء، فأشار لي رجل نحيل أخضر اللون كأنه من أبناء النوبة الغربيين برأسه البيضاوي الصغير، الذي تتكاثر فوقه شعيرات تلتف على بعضها في اكتظاظ وحميمية لا نجدها في شعورنا المسترسلة المتراكب بعضها فوق بعض، والمنحدرة على بعضها، أشار إليّ هذا الرجل الأبنوسي أن أشرب من الزِّير الفخّاري الصغير إلى يسار باب الطائرة المخلوع المنصوب على قاعدة من الصفيح المسودّ من أثر الصدأ المتفتت، فاقتربت منه وتناولته بحرص ورشفتُ منه بسرعة

لئلا أرى ما يسبح فيه ثم توقفت خشية أن يكون هذا آخر الماء لديهم، فأشاروا إليّ جميعاً أن أكمل شرابه فالماء كثير في أنحاء الطائرة!!.

كان الماء لذيذاً هذه المرة، رغم ما تتذوق فيه من نكهة الرمل النيلي المميزة ورائحة طمْيه، فهذا الطعم علامة مميزة على سلامة المصدر المائي وليس صلاحيته الصحية بالطبع، حتى إننا أصبحنا نميز بين السمك البلطي البحري والبلطي النهري النيلي من طَعم وحْل النيل ورائحته المتغلغلة في لحمه الأبيض الطيب.

لم تكد تسقط آخر قطرة متدلية من شاربي المتبلل من آثار الشرب، حتى بدأت الطائرة بالتمايل كأنها بقرة مخمورة تسابق أختها على تبن يابس يلقيه صاحبها آخر الحظيرة في ليلة مطيرة موحِلة، والتفتّ ورفيقيّ بسرعة إلى الطيارين وقد تساقطت أكواب الشاي من أيديهم من حيث كانوا يضعونها بجوار الأجهزة، واندلق الشاي على هذه الأجهزة، وسمعنا دون أن نرى أصوات قرقعة كهربية كأنها ماس كهربي في بعض الأسلاك المكشوفة والملفوفة بخرق قماشية قديمة، فتشهّدوا مرةً واحدة مسلمهم ومسيحيّهم ووثنيّهم، فأخافوا كل قريب منهم!!.

صرختُ فيهم بخوف وتشنّجٍ أسْتَعلِم عما يجري فصرخوا في وجهي طالبين مني الرجوع إلى مكاني، وأصواتُ ركّاب الطائرة تعلو بالصّياح والسؤال وبكاء الأطفال والنساء، واسّاقطت الأمتعة المحزومة بأكياس بالية على بعضها وعلى الركّاب، واشتبكت محتوياتها بالحيوانات

وبالأطفال والنساء والشيوخ والبضاعة، واختنق الأطفال الرضّع الذين أفلتتهم أيدي أمهاتهم من شدة الاضطراب، ونفقت حيوانات الماعز الصغيرة تحت الأثقال واندلقت أمعاؤها الملتفّة في مشهد خوف دموي وفوضوي مقزّز.

قذفتُ نفسي بلا وعي بين أكياس الذرة، وخطر في ذهني المحترق الباحث عن الحياة السريعة أن الطائرة لو احترقت فإن هذه الذرة ستتحول إلى «فوشار» قد يخفف عنه أثر الاصطدام، ولكن الفكرة تبددت فور التماعها، فهذه الذرة التي نحسبها ذرة ليست هي الذرة التي نعرفها، فهم يفرقّون بين الذرة الشامية التي تنتج «الفوشار» بعرانيسها المتطاولة، والذرة المصرية التي نطعمها للحمام في بلادنا الشامية ونسميها «القنبز» ففوتت عليّ هذه الذرة المصرية فكرة النجاة المضحكة، واستسخفتها أيضاً، إذ إن الاحتراق سيأكل الفوشار أيضاً ويحوله إلى سواد قاتم هش تذروه الرياح.

ناديتُ – في زحمة أفكاري المختلطة هذه –: منقو!! سيف الدين !!، لقد كانا مثلي يرتعبان من الخوف والاضطراب والحيرة، وانكمشا بين الأكياس، وطلب منّا سيف أن نتلفّظ بالشهادتين لعلنا نلقى الله على تلك الكلمة، فتشهّدنا جميعاً واستحضرنا في ثوانٍ قصيرة مشاهد ذنوبنا وآثامنا ومعاصينا وأحبابنا وبلادنا، واعترفنا بأخطائنا طالبين من الله العفو والغفران واستسلمنا لمصيرنا المحتوم، بينما كان منقو ينظر

إلينا ويطلب منا برعبٍ «تعويذة» التشهد هذه، لعلّه ظنّها تعويذة سحريّة تخرجه من هذا البلاء الذي وقعنا فيه.

كانت أصوات الناس تصلنا بين استغاثة ودعاء وصياح وطلب للنجدة، وتسلّلت إلينا أصوات من قمرة القيادة تشير إلى حريق في أحد المحركات وأنه سيهبط في سهل قريب من النيل توجد بقربه قاعدة عسكرية قديمة للجيش السوداني، وفيه مدرج رملي صغير وقوطيّات من القصب والخشب على أطرافه لإقامة بعض الحرّاس المحلّيين من أبناء المنطقة.

كنت أستمع للتفاصيل بعناية ومن كل مكان تزدحم فيه الأصوات ولا أدري كيف كانت تأتيني مهارة التحليل والتمييز السريع في هذه الأوقات المقلوبة، وكأنّ الحياة تحرق مراحلها، وتصل بنا إلى أعلى مقامات الوعي والإدراك في انتظار الموت.

وكانت عيناي الذابلتان المفتوحتان تتسلّلان عبر النّافذة إلى البساط الأخضر الملتفّ كالقبّة على الأرض وتظهر فيها متعرجات الأنهار كأنها الدورة الدموية في الجسد الأخضر العظيم.

استمرّت الطّائرة العجوز تتمايل بخفّة الثّقلاء الغليظة في الجوّ، وهي تتكسّر في ميلانها على نحوٍ مخيف باتّجاه غور الأرض ينبئ بسوء الكارثة، بينما كانت الأدغال الخضراء المتراكمة تبدو لنا كبساط غليظ ناتئ عريض تخيّلناه مثل غول أسود يجمع فكّيه لالتهامنا ونحن نسقط في فيه، ولكنّ ومضة إيمان لمعت في آنذاك فسبّحتُ الله على حسن خلقه

وإتقانه وإبداعه وانهمرت دموعي مطمئنّاً ساكناً، وأعلنتُ رضائي بقدرنا المكتوب، واعترفتُ بذنبي، وحمدت الله على بلائه، ثم ما لبث صخب السقوط المرعب أنْ هزّ طمأنينتي، فأغمضت عينيّ على خوفٍ ملأ جوانحي، حتى شعرتُ لأول مرّة أنّ كلّ شعرة مني تتحرك وتنطق وتخاف مثل أي عضو جارح في جسدي.

بدأت الطائرة في السقوط على الأرض ولكنه ليس سقوطاً رأسياً فهي لا تزال صامدة في الجوّ، وهناك أمل في أن تحطّ على المدرج!!

- يا الله!!

- هل يتحقق هذا؟!!

- هل سننجو؟

كانت هذه المشاهد تبدو لنا كضباب منقشِع من زجاج قائد الطائرة الأمامي بينما كانت أعيننا تنفتح قليلا وتغتمض من خوفنا حيث كنا نتحصّن في أقرب نقطة إلى قمرة القيادة بين الشوالات، وكان يرعبنا صوت الطّيار وهو يقود ويوجّه الأوامر لفريقه الصغير أن يرفعوا هذه اليد، وأن يخفضوا تلك، وأن ينظروا في المؤشر، وسمعته يطلب منهم أن يجففوا بقايا الشاي المدلوق على الأجهزة الذي عطّل الدّارات الكهربيّة في هذه الطائرة القديمة المتهالكة.

غلبتني الرغبة في الحياة رغم استسلامي لقدري، فخرجت من بين

الشوالات أجمع شجاعتي وأتّكئ على بقايا احتمالي وصبري، ونظرت إلى الطّائرة وهي تقترب من الأرض.

إننا نرى المدرج الآن، لكن الطائرة لا تزال مسرعة، و السقوط سيكون شديداً، والأفضل أن أركض إلى الخلف فهذا قد يجعلني أموت من غير احتراق، فلا أتألم إلا بجرح بالغ غائر ينغرس من حديد الطائرة السميك المليء بالمسامير العملاقة، فهرعت بكلّ ما أوتيت من قوة، وقذفت بجسدي كلّه فوق النّاس إلى الخلف، وزحفت فوق صراخهم وشتائمهم وبكائهم، وأنا أرفس برجليّ بكلّ قوة، وأجذب بيديّ كلتيهما النّجاة من الهواء واللباس والدّم والشّعر والحديد الذي أمامي، وكلما تقدمت شبراً تراجعتُ شبرين من جاذبية السّقوط لولا إصراري على الوصول إلى النهاية، ولم أجد نفسي إلا آخر الطائرة وحدي دون رفاقي، بينما قذفتْ قوة الهبوط مَن في مؤخرة الطائرة إلى أمامها، وأمسكتُ بحبل عريض كان معلّقاً آخرَ الطائرة كانت بعض الدواب ترتبط به.

ارتطمت الطائرة بالأرض من أسفل بطنها بعد أن تمكن الطيارون من منع الارتطام الرأسي القاتل، وشعرنا بتكسّر عجلات الطائرة وانبعاج صفيح جدرانها، وارتجّ الحديد كله، وشعرتُ بحرارة اللهيب تجتاح الهواء، وكانت الطائرة المجنونة لا تزال تنهب المدرج بعنف كقذيفة ثقيلة طائشة، تلتهم طين الأرض وحجارتها بشراهة، واستمرّتْ تحاول التوقف حتى وصلتْ إلى نهاية المدرج، واجتاحت ضفة المستنقع، وظل الطين والوحل

والأعشاب وأشجار البرديّ والقصب والتلال الصغيرة يمسّكونها فتدخل هذه في بطن الطائرة فتتباطأ دون أن تتوقف حتى اقتحم رأسُ الطائرة ماءَ النهر، وانتصف جسمُ الطائرة بين ماء النهر الهائج، والمستنقع الموحل، وتوقف كل شيء في لحظةِ وجومٍ صارخة.

هل نحن في البرزخ الآن!!؟

استفقنا ثانية على مشهد الموت الذي يلاحقنا بلا رحمة:

انكسر جسم الطائرة المهترئ وانقسم إلى نصفين، وضرب تيارُ النهر الغاضب جسم الطائرة المكسور، وابتلع نصفها الأمامي بمن فيه وجرفه معه، وأنا أرى الدم واللحم والصياح والحديد وأشوال الذرة والمتاع والصناديق تتقاتل في الماء الملتهب، وتخلط الأجساد الحمراء بفورةٍ وغضب، وفي المشهد القريب حولي تنغرس أجساد سمراء في شظايا حديد الطائرة وجذوع الأشجار المسنونة الرطبة بلعاب الموت التي تتقاذفها أمواج النيل، وتذهب بعيداً عن ناظري تجذبهم بعنفٍ قبضاتُ النهر الرحبة الغاضبة، وأنا مدهوش ميت واقف آخر السفينة يمسك جسدي كله بهذه الحبال في معركة الروح والجسد الأخيرة، تفطّرت يداي وانساح منهما الدم عبر شقوق ممدودة، وانجرحت قدماي وتشوّه وجهي بضربات السقوط وانتشرت الرضوض أو الكسور - لا أدري - في ظهري وأضلاعي وأطرافي، وصرت أسودَ من جلد الطائرة المحترق الذي يزيد حرارة جسمي من لهيبه، ولا يطفئ من حرّ ناره سوى ماء المستنقع

الموحل الذي تسلل إلى قلب الطائرة المعلّق مع موجات النهر المتمردة التي تتصاعد على بعضها لتصل جوف الطائرة الحامية المشطور، ورطّب الماءُ قدميّ و رِجليّ، فشعرت أن ثلج القطب المتجمد كله يدغدغ أصابع قدمي ويحتضنها ثم فقدت الوعي تماماً وسقطت خائر القوى منهوك الجسد معدوم الحيلة.

القيامة

انفتحت عيناي المستلقيتان على سقفٍ من القصب المنقور بالسوس، يتخللها قش أصفر مغبر ببقايا الطين أشبه بالعريشة العابرة التي تنتشر في الغابات والمراعي الصحراوية إلا أنها محشوة بأوراق تشبه أوراق الموز الطويلة لتقي قاطنيها من نفاذ حبات المطر وأشعة الشمس من الشقوق، وقد تدلّى منها ريش نعام وأجنحة طيور كاسرة وأنياب حيوانات، وقصب منقور بحرفة بدائية، وطبول مجوفة كبيرة، وما إن هبطت عيناي حتى رأيت تاجاً مكللاً بالريش الملون الزاهي يلتاث على رأس رجل أزرق شديد السواد، مفلفل الشعر، أَخْرَبِ الأذنين، وقد تشلّخت وجنتاه بشلوخ أشبه بالكلمات المتقاطعة التي تمتلئ بالمربعات السوداء، وقد تدلّت على صدره العاري - إلا من شعرٍ ملفوف على مسربته - قلائدُ من الحجارة وأنياب وحوش الغابة وأخشاب محفورة ملونة، وقد أحاط بخاصرته إزار من جلد فهدٍ منقط مشقوق طولاً يصل إلى منتصف فخذيه، وتتدوّر حول أسفل ساقيه وظنابيبه كشاكيش وخرزات وأنياب وأزرار وأخشاب تصفق في

أثناء المشي وتصدر أصواتاً غير متناسقة مخيفة، وعلى ظهره وشمٌ كبير لصقر جارح فاردٍ جناحيه بهيبة.

وقعت عيناه ذواتا البياض الأحمر المسمرّ على عينيّ الدائرتين في ضباب ملون قاتم من أثر انعكاس هيئة الرجل الأزرق الملون، ولم يزل هذا الضباب يتكاثف في عيني كلما انحنى الرجل إليّ وهو يتمتم بأهازيج متنافرة كأنها تعويذة سحر.

❖ ❖ ❖ ❖

استسلم جسدي المكدود المجروح المسجّى على «العنقريب» - السريرِ الخشبي المنسوج من خيوط نبات «القنّب» - المستند إلى قواعد خشبية قصيرة تشتبك مع بعضها بخشبات تنغرز في فجوات محفورة داخل هذه القواعد، بينما كانت عيناي لا تزالان تدوران من أثر الاصطدام، وما لبث أن تكلم معي الرجل الغريب برطانة عربية إفريقية مألوفة مرحّباً بي في منزله المكوّم، وعرّف بنفسه:

- أنا «مايوم» وأنا «الكجور» في هذه الأرض المقدسة!!

- أنا عارف!! سقطت الطائرة!! أين أصحابي!!؟

- جميعهم ماتوا على الأغلب وقد نجوتَ بأعجوبة وقد عالجتُك بأعشاب أرضنا المقدسة فأنا ساحر المنطقة وحكيمها!!

- أنت تتحدث!!

– بالطبع فأنا جامعي وقد درست الهندسة! لكنني أنتمي إلى هذه الأرض أرض الإله والأجداد.

– ولكن كيف تعيش هنا!؟

– إننا من نسل «دينق» الكبير ملك الطبيعة وهو الصانع المدبر الخالق الكبير! وروحه الطائرة تحوم حولنا مع الصقور، إنه ابن السماء، ابن «ألوت» ابن المطر والغيوم.

– معاذ الله يا رجل!! إن الله واحد لا يتعدد وهو الخالق الأوحد وهو لا ينتمي إلى زمان أو مكان!

– أنت أحمق ميت!! دعك من هذا الآن، لقد أعددتُ لك بعض الدواء لتشربه وتدّهن بالآخر، ثم عليك أن تعود من حيث أتيت وأمامك مسافة شاسعة ستمشي بها حتى تصل إلى أقرب طريق سالكة.

– أشكرك جدا على إنقاذي وأنا مدين لك بحياتي، ولكن وضعي كما ترى فكيف أتحرك وأمشي!؟.

– مهْ! اشرب دواءك الآن!.

هذا ما عقلته من هذياني الكثير في تلك القيامة، ولكن عيني وسمعي وكل جارحة فيّ لم تعد تخطئ أي تفصيل: كان الدواء أخضر شديد المرارة وكان مصنوعاً من أوراق الأشجار المدقوقة مع حبوب مكسرة تشبه بهارات القرنفل والفلفل الأسود شربتها على الريق ثم ادّهنت بالباقي كما أشار عليّ، وأنا أشعر بأثقال هائلة تتسلق على ظهري فتزيده ألماً، وأشعر

بالكدمات تملأ صدري وفخذي وساعديّ، والجروح تنتشر في وجهي وأنحاء جسدي.

كنتُ أرقد رقدة طويلة فور أن أتناول الدواء العجيب وأدّهن به، ولا أستيقظ إلا عندما تغيب الشمس تماماً وينسدل الظلام عليّ، وكان «مايوم الكجور» أول الأمر يعودني مرة كل صباح يراني ويسلّم عليّ، ثم صار يغيب في الغابة المظلمة الخضراء أياماً، ومضت أيام طويلة من النوم الإجباري والظلام لم أعدّها حتى جفت قروحي واندملت جراحي، وشعرتُ بالأثقال ترتفع عني، وأرى صفحة وجهي على ماء المستنقعات، وقد تغيرت من كثرة الحروق وأحافير الجروح الغائرة، وألمس شعري فأراه ساقطاً كأن نار الحريق اجتاحت نواحي كثيرة منه فبدا كحَوْش خضار يزرع الفلاح بعضه ويترك الآخر لتستريح الأرض من استهلاك تربتها بالإنبات.

بدأتُ أتعرف إلى محيط الغابة المظلمة التي تظللها أشجار المانجو الضخمة بثمارها الصفراء المتدلية بخيوط خضراء كأنها حبال، وقد أخذت العصافير والطيور والقرود تأكل منها وتنقر، وتشاركها الحشرات وكأنها نحلات تتغذى من رحيق حلاوة هذه الثمار، وقد سَرَتْ في المكان رائحة منتنة كأنها العفن الرطب من كثرة سقوط هذه الثمار الناضجة، أو سقوط بقاياها المتفتتة من أيدي القردة المتقافزة، وقد تحلق النمل عليها والذباب وهوام الأرض فاخضرّت، ثم اسودت، وتناثر ريحها الكريه.

ترتاد الطيور والحيوانات المفترسة الصغيرة هذه المنطقة بكثرة، ولا

تكترث بوجود إنسان بقربها، رغم أنها بدت لي حذرة مترقبة، ولاسيما قرود النسناس الصغيرة التي كانت تتسلل إلى عريشتي لتسرق الثمار التي أجمعها، أو تقضم منها قضمة تتسلى بإفسادها عليّ بعد شبعها، وترميها على فراشي الأخضر المصنوع من ورق الموز فوق العنقريب «السحري».

مضت بضعة أسابيع ثقيلة ولم يطلّ عليّ صاحبي الساحر، وشعرت بالملل القاتل يدفع بي إلى الانفجار أو الجنون، إذ لا أستمع إلا إلى أصوات الحيوانات والزواحف والطيور التي تجعلني في حالة ترقب دائمة خشية عضة أفعى أو لدغة عقرب أو لسعة زنبور أو ذبابة رملية، أو صولة حيوان مفترس، ولكن الهمّ الذي لا ينقطع كان البعوضَ الكبير، فقد شنت بعوضة عملاقة هجوماً حاقداً عليّ!!، حفرت إحداها حفرة في ساعدي الأيمن وأنا نائم ثم أخذت تمتص من دمي العبيط حتى امتلأتْ به، ثم لم تلبث أن انفجرت من امتلائها بدمي، وكأنها أصيبت بشهوة سحرية أفقدت فِطرتَها في الاقتصاد والاعتدال في المطعم والمشرب، ثم ابتليتُ بتلك الذبابة السخيفة التي لم تجد مكاناً تبيض فيه سوى ظهر قدمي فانتفخت القدم وخرج منها صديد وعَمَلٌ من فوهة كفوهة بركان ينفث أدخنته ويستعد للثوران، منعني من احتذاء نعلي الجلدي المشقوق الذي تركه لي صديقي الساحر الغامض تنزرع فيه أشواك الغابة وحراشف زواحفها الميتة، كنت أستعين بهما إذا ادْمَوْمَهَتْ قدماي وكادتا تغليان من لهيب الطين المُلْتَظِي بسياط الشمس.

كان الطعام كثيراً من أرزاق هذه الغابة، فأشجار المانجو بثمارها الخضراء والصفراء والحمراء المستديرة والمستطيلة والمخروطية والقلبية والسَّمكية يعج بها المكان، وأشجار الباباي التي تنمو حباتها على ساق الشجرة الخضراء الطويلة، وثمار غريبة بعضها يشبه الزعرور البري إلا أنها حمراء ذات طعم لاذع، وهناك أسماك النهر الكبيرة والصغيرة السهلة الاصطياد فما عليك سوى أن تلقي ثمرة مانجو في مستنقع مياه ضحلة استقلت عن النهر العظيم قليلاً حتى تتقاذفها أفواه الأسماك فتضربها بعصاك ثم تغرز فيها عوداً مدبّب الرأس، وتشويها على نار توقدها من احتكاك عودين يابسين ملفوحين بالشمس الحارقة كأنك في العصور الحجرية، ولم يكن الحصول على العودين اليابسين سهلاً فالرطوبة تأكل اليبوسة في تلك الأدغال المطرية فكنتُ أتسلق الأشجار السامقة وأمتطي فروعها الضخمة وأرتفع بالأعواد على أعالي فروعها وأربطها بعد أن أقطع الأوراق من حولها لتواجه الشمس أياماً ليشتد عودها وتيبس، وكان أكثر ما أخشاه عليها أن يصيبها مطر عابر أو ندى مدلوق من أوراق الأشجار العريضة.

وإن أردت الشراب فالنهر من حولك يرويك بماء ليس مالحاً ولكنه طين خالص أرهقته الرطوبة، وتجد بين تشققات الأشجار العملاقة بركاً مائية تركتها مياه الأمطار أطيب طعماً من تلك التي في النهر إلا أنك تخشى من بيات الأصَلات السامة قريباً منها، وكثيراً ما كنتُ أجد بعض

هوام الأرض تتمطّى فيها سابحة، إلا أنني أَلِفتها مع كثرة ما مسستُها بتقزّز وألقيت بها فكنتُ ألتقطها ثم أكرع ماءها الثقيل لأعوض ما يتسرب مني من عرق مصبوب من أنحاء جسدي من شدة الحر وكثافة الرطوبة.

ثم فطنتُ إلى طريقة مثالية في تنقية الماء، فما عليّ سوى أن أذهب إلى ناحية واطئة من شاطئ النيل الرملي حيث لا توجد انكسارات نازلة، أو تهدّمات قاسية، فأحفر فيها بضعة سنتيمترات ليتسلل إليّ الماء المحبوس في جوف الأرض وينبسط باسماً لي، ثم يزيح عن وجهه عكارته ويصفو لي ويدعوني لاستضافته!.

كانت أشد أوقاتي عليّ في الليل، حيث تسعى سباع الغابة وهوامها وحشراتها في طلب طعامها وإطلاق أنوفها الشامّة مع أن نهاري أيضاً كانت تغطّيه الظلمة من كثافة الأشجار وأوراقها، وكان الليل الأسود يصبح وحشاً آخر لاسيما في ليالي المحاق القمري حيث تنعدم رؤية كل شيء، ولا يمكنك أن تشعل ناراً لئلا تشتعل العريشة التي تتدلى منها أغصان يابسة، وتنبسط على سقفها جذوع أشجار لم تتمكن منها الرطوبة، ثم إنك لن تحتمل لهيبها فوق لهيب الحر الذي تتركه الشمس مستلقياً على ظهر الأدغال ملقياً أثقالاً لا تطاق من الرطوبة والعفن، وكنتُ أخشى ورود الماء في تلك الليالي خشية وقوعي على أصَلة سامة، أو تمتد يدي إلى الماء فيظنها أحد التماسيح سمكة فينتزعها من كتفي، أو تلاحقني أفراس الماء الغاضبة دوماً وهي تفغر أفواهها البخِرة المنتنة

الملطّخة بالوحل والقش، والتي أشتم رائحتها القذرة من بضعة أمتار أو أكثر إن زاد عددها واحتشدت قرب بعضها مع صغارها الضخمة وهي تنفخ من مناخرها الواسعة الفتحات وهي تصوّت بأصوات مؤنثة خفيضة كأنها نقيق الضفادع؛ أو تنتشلني موجة نيلية غاضبة وتدفنني في طين البحر، لاسيما أنني لم أكن يوماً من مجيدي السباحة.

ولكنني اكتشفت في تجوالي الطويل في أنحاء الغابة المحيطة بي شجرة سامقة كبيرة تمتد طولاً وعرضاً، ويزيد طولها عن ثلاثين متراً بجذوعها المتينة، تتراكب فيها سبع عشرة وريقة في منظومة ورقة واحدة وعليها نوّار أصفر جميل وبذور صغيرة ذات رائحة زكية طيّارة، فكنت أستلقي تحتها مرات ومرات لأشتم رائحتها الطيبة إذا عبَرت بنا نسمة طائشة تحرّك رحيقها الزاكي فتنشره في الأنحاء، وكانت تغريني بتسلقها نظراً لضخامة جذوعها وقلة كثافة أوراقها، ولم أكن أجد أية بعوضة مارقة فيها خلافاً لباقي الأشجار التي تمتلئ بطون أوراقها وسيقانها بالآلاف منها، فعلمت حينها أن هذه الشجرة طاردة للبعوض بسبب رائحتها أو أوراقها أو سر آخر لم أتبينه فيها ولذلك كنت كثيراً ما أستلقي تحتها في النهار، أو أتسلق إلى ساق غليظة تتفرع عنها سيقان مثلها، فتترك في ملتقياتها ساحة دائرية أفرشها بأوراق الموز، ونشأت بيني وبينها علاقة دافئة كأنني معها أشعر بحنان أمومي قديم فأطمئن لها وتنشر حولي أغصانها تداعبني ببعض النسمات المتسللة بينها وتكسر عني سياط الشمس.

علمت بعد حين أن هذه الشجرة العجيبة تنتشر بكثرة حول النيل ويسمونها «النِّيم» ولم أجد سوى هذه الشجرة حيث كنتُ هناك، رغم أنني وجدتها كثيراً في وسط السودان حيث كنتُ أدرس في عاصمتها، وكنتُ كثيراً ما أتأمل - وأنا مقيم في جوفها - في هذه الطبيعة العجيبة الرائعة والمخيفة، وتشدني تلك الشجرة بثباتها وحدها في تلك الغابة التي لا تستلطف الغرباء ولا تقبلهم، ولكنها فرضت نفسها على سلطان الغابة وكائناتها، فكانت بعض السعادين تأتي إلى أعلاها وتمضغ أوراقها وأغصانها الطرية وتديرها بأيديها على أسنانها ثم تبصقه فتبدو أسنانها بيضاء مجلوّة ناصعة؛ رغم أن الخضرة لا تلبث أن تعود إلى أسنانها من كثرة ما تلتهم من أوراق وثمار، بينما كانت أسراب الجراد الصغيرة البنّيّة التي كانت تمر بي أحياناً تبتعد عنها ولا تقربها، ويتجنبها النمل الأبيض، وتتحكّك بها الظباء والتياتل وتبيت تحتها الضواري الصغيرة.

رغم أنني أصبحت خبيراً بالأدغال الملتفّة المحيطة بي، وبدأتُ أستلطف بعض مجالي الحياة فيها على كراهتها لي، إلا أنني بتّ أشعر أنني في بحر مظلم لا نهاية له، وليس لي سبيل إلا صاحبي الغريب - الذي أطال الغياب - ألتجئ إليه للخروج من هذا المكان الموحش...؛ ويطول الغياب.

- مهلاً مهلاً!!

أخيراً!! ها هو ذا قادم على زورق خشبي يحمل قصبة طويلة يغرز بها الطين الضحل في هذه المستنقعات المتصلة التي يعلوها الماء متراً أو يزيد،

وتصطخب فوقها أشنات الماء وأوراق الأشجار المتساقطة وفروعها التي تكسرها القردة أو تلتهمها أفواه الظباء والأيائل وتلقي بقيتها في الماء.

نزل بعيدا عني رغم أنه رآني أنظر إليه متلهّفاً، واتجه صوب شجرة عظيمة، ونفخ في بوق خشبي طويل أنغاماً مزعجة نافرة كأنه يستدعي بها روح «إلهه»، ثم أخذ يتراقص حول ساق الشجرة كطائر الحبارى الذي بدأ يتطاير ريشه بعد موسم التزاوج، وأجده يغيّر هيئة رقصه مراراً: فيبتهل في رقصة رافعاً يديه إلى أعلى نقطة يصلها وقد بان إبطه المشعر الأسود، ويركع في ثانية، ويسجد محركاً عَجُزَه في ثالثة، أو يقفز ضارباً برجليه في أخرى كمن يلحّ في إسقاط حبات المطر فتعانده ولا تأتيه.

أسرعتُ إليه بلهفة تسابقني قدماي، ثم صرختُ فيه غاضباً ومؤنباً لتركه إياي، و ما إن وصلتُ إليه تصامم عني، فأدركتُ بعد إلحاحي وصدّه الصامت أنني أقطع عليه صلاته فأسندتُ راحة يدي إلى جذع شجرة أنتظر فراغه من عبادته الطوطمية تلك، وقد مسحتُ بيدي الأخرى على جبهتي أحكي العوز والألم والحيرة.

عندها بسط كفيه على الأرض على هيئة الساجدين وقد مد ظهره بكامله وألصق بطنه بالأرض فعرفت أنه بدأ يختتم صلاته فالتفت إلي وأشار إليّ بالقدوم فقدمتُ عليه وعاتبته على طول غيابه رغم معرفته بحاجتي إلى معرفته لأخرج من هذا المكان فأغمَضَ عينيه ورفع رأسه إلى السماء ببرود وقال:

- لن تخرج من هنا حتى تساعدني في طرد الروح الشريرة التي دنست هذه الأرض!

- أية روح يا صديقي فأنا لست ساحراً ولا حتى مكنسة تطير بها ساحرة المستنقع!!

- خروجك من هنا أيها الغريب لن يكون إلا عندما نتخلص من هذه الروح الشريرة!!.

- وما دخلي أنا بهذه الروح الشريرة أو الطاهرة أريد الخروج فحسب!! لا أستطيع العيش أكثر في هذا المكان فسأموت من هذه الهوام والزواحف!! انظر إلى يدي وقدمي ووجهي ماذا أصابها من القروح ووو...!

- هذه إرادة الإله دينق!! سأدلك على الحاج عثمان إنه يسكن قريباً من هنا على طرف البحر من ناحية الغرب، اركب معي الآن ولا تأخذ شيئا معك فستجد عنده كل ما تريد.

- الحاج عثمان!!

ركبتُ زورقه الخشبي الصغير القديم المنقور من جذع شجرة عملاقة، وقد تسرب إليه الماء من كل نواحيه فكان كل قلبي ينبض بكل بُطيناته خشية الوقوع في البحر العريض فأكون طعاماً للتماسيح السابحة والرابضة على الضفتين.

مضينا نحو الغرب في نهر عريض متعرج تتوسطه جزر خضراء صغيرة وبدا لي أنه من روافد النيل الصغيرة الكثيرة هناك، وكانت

الأشجار الضخمة تحجب عنا رؤية ما وراءها حتى أشرفت علينا أكواخ متراصة من الخُوص والقصب والأخشاب يلعب حولها صبيان زرق صغار مع امرأتين كأنهما غرابان فاحمان، وبدتا سعيدتين لرؤية صاحبنا، وملامح الدهشة والاستغراب تعلوهما في الوقت ذاته، بينما كان الأطفال يضحكون باستغراب وهم يشيرون إليّ كأنني دمية منتوفة من اختلاط ألواني من حروقي وقروحي وبقايا جلدي الأحمر، ولا أظن أنهم رأوا بشرة فاتحة من قبل رغم سمرتي القمحية الذهبية غير المجلوّة، إلا أنني كنت أغض بصري عن المرأتين لئلا يظنا أنني أسترق النظر إلى ما لا يحل النظر إليه فينتهي بي الأمر إلى الطرد والإهانة.

تكلم صديقي الساحر مع المرأتين برطانة لم أفهمها، وغلب على ظني أنه كان يسأل عن الحاج عثمان الذي حدثني عنه، إذ أشارتا إلى مكان قريب يأوي إليه رجل لا يكاد يبين من تكاثف الأشجار، فمضينا إليه ثم تقدمني الساحر الغريب قبل أن أرى شيئا بعد أن أومأ إليّ بالتوقف عن المسير حتى يعود، فتحادثا قليلاً وما لبثا أن أقبلا عليّ بترحاب، وبادرني الحاج عثمان من بعيد بالسلام رافعاً يده:

- السلام عليكم يا زُول! مَرْحَبْ بيك! حَبابَك عشرة بلا كَشرة!! دِيل أهلك وناسك!

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ الحمد لله!! الحمد لله!!

كانت الحيرة مفعمة بفرح الكون تلفّ وجهي الكدِر، أقبل يتحدث إليّ

الحاج عثمان وهو يربت على ظهري يواسيني ويخفف عني، أنا حيّ أنا أتكلم أنا.... مشاعر لا تتكلم كل لغات الدنيا بها.

رافقني ناحية أكواخه وتركتُ الصديقَ الساحر ورائي وهو يهزّ رأسه كأنه يظهر الفرح والسرور بهذا المشهد، وانصرف إلى زورقه.

جلسنا في الكوخ على حصيرة قديمة من خُوص ورق البردي المنتشر على ضفاف النيل فكانت فرصتي الأولى للتعرف إلى هذا الرجل الإفريقي ذي الملامح العربية المختلطة وكانت جلسة سمر طويلة حكت عني وعنه في لحظات سريعة عناوين حياتنا.

كان الحاج عثمان ينتمي لقبيلة عربية من قبائل «المسيرية» الرعوية التي تستوطن غرب السودان في إقليم دارفور، وحكى بأسف - وهو يتألم - كيف جنى جناية قتلٍ في مَيعة شبابه، ولم يخضع للحق آنذاك، وأبى أن يقف أمام قضاة العدل والنُّظّار، فخلعوه من قبيلته لما طال عناده وشِراده، وخشي أن يناله الثأر بعدما رُفِعت عنه حماية قبيلته، فاتجه نحو أهل البقر الذين يقطنون إلى الجنوب من دارفور مبتعدا عن القبائل المعادية المحارِبة لقبيلته حتى استقر في هذا المكان النائي بعد طول ارتحالٍ أوصله إلى قبيلة زنجية صغيرة تسكن هذه المنطقة تدعى قبيلة «الفراتيت» وكانوا سَمْحين معه، فعاش معهم طيلة هذه السنين، وبدأ اندماجه معهم بالزواج.

أما أنا فقد حدثتُه عن أهلي وعن قريتي وعما يصيبنا من هؤلاء اليهود

الذين استولوا على أرضنا، وشرحتُ له كيف نقاتل هذا الاحتلال بأيدينا وحجارتنا، وحكيتُ له عن سجني الإداري وحكايات السجن وما تعلمتُه هناك ؛ كان الحاج عثمان خلال حديثي يتعجّب من كلامي و يكتفي بالتعليق بهزِّ رأسه، ثم سأل – كالمتعجّب الجاهل - سؤالاً فتح فوهة المفاجأة على مصاريعها، وأشعرني أنني كنت أكلم نفسي:

- يا الله!! اليهود!!... صاروا أقوياء! و لهم دولة! ويقتلون أهلنا! أين فزعة العرب!؟

كانت المفاجأة ثقيلة الوطأة عليّ فلم يكن يخطر ببالي أن أحدا على وجه البسيطة لا يعرف أن فلسطين محتلة فكان عليّ أن أشرح له لساعات طويلة عن تفاصيل أخترعها له ليفهم عني قضية وطني حتى شعرتُ بمللة، فقطع عليّ حديثي بحزمٍ ووعدني باستئناف الحديث في الموضوع في ليلة أخرى وسألني أن أختار وجبة غدائي:

- ماذا تحب أن تأكل فلدينا هناك لحوم كثيرة؟ أتريد لحم العجل أم التيتل أم الغزال أم النعام أم دجاج الوادي...، أتريد اللبن أم الروب أم الجبن أم.... أم... ما تشاء!؟

- شكراً شكراً هذا كثير!

- سأطعمك إذن شيئا ستحبه جدا سنأكل بيض دجاج «كانو» وذراع ضأن مشوي الآن ثم نتجه في الليل لنصطاد.

- ما هذا الكانو!!؟

- نوع من دجاج الوادي المنقّط، كثير البيض وينتشر أكثر من الذباب أحياناً - قالها ضاحكاً -.

كان لحم الضأن المملح المشوي طيباً لذيذاً على الرغم من أن الرماد الأبيض الداكن كان يصبغه كله، وكأنهم طبخوه في رماد «المَلّة» الساخن الذي يحتفظ بحرارته في حفرة واسعة تنتصب فيها النيران عادة فيجعلون فيها طحين الذرة ليصنعوا منه خبزهم المفقّع والمنقّط بالسواد الفاتح أو يجعلون فيه قطع اللحم المقطّع لينضج على مهل.

استأذنت الحاج عثمان لأغيّر جلستي، وانطويتُ إلى جنبي، ونمت على فراشٍ طري من جلد أسدٍ فحلٍ أصهب يميل إلى الصفرة المحروقة، وأقفلتُ عينيّ قبل أن تمتد يد الحاج عثمان لتقدم «الجبَنة: القهوة»، وقد داعبني خيال الصلاة المفروضة لولا غلبة الإرهاق فنويت الجمع مستسلماً لسلطان النوم بينما وقف الحاج عثمان وأذّن لصلاة المغرب بلكنته الغَرْباويّة، ورفع يديه مكبّراً ثم غرقت في منامي.

كان القمر بدراً حين وخزني الحاج عثمان بعصاه في جنبي معلناً قرب موعد رحلة الصيد فقمت سريعاً نحو جدار خشبي منفرج ما بين خشباته جعلوا فيه الخلاءَ ولا يكاد يَستر للمتفحّص المستقصِد، فقضيت الحاجة على عجل من كثرة التلفّت والقلق من عين عابرة ضالة، ثم توضأت من زير كبير تكسوه الطحلبيات الخضراء يقف بشموخ خارج الخلاء،وصليت صلاة المسافر والتحقتُ بالحاج عثمان الذي كان ينتظرني في زورقه

الخشبي الصغير وقد تدلى من رقبته حبل معقود بعقد عدَّة ورمح وخنجر، ثم بدأ بالبسملة وتلاوة أذكار الاستعاذة من الشيطان وأعوانه الخبثاء، وقد أضاء ضوءُ البدر المنعكس على صفحة الماء طريق الزورق الصغير وشرعنا نتجاذب أطارف الحديث عن السماء والماء والشجر، ثم فاتحني بأمر تكلم فيه بمنطق مختلف عما كنت رأيته فيه من جهل بأحداث العالم وعيشه على هامش الحياة، فبدا لي سياسيّاً بالفطرة:

- نحن في بقعة نائية بعيدة عن الناس ومشكلاتهم، لكنني وأولادي بتنا منذ سنة وأشهر نشعر أن ثمة خطراً قريباً منا يتهددنا فهناك مطار صغير تحط فيه طائرات صغيرة، وتُسقَط عليه من طائرات شاحنةٍ كمياتٌ كبيرة من السلاح والمعدات والأدوات، وهناك رجل أبيض لا نستريح له، ويقولون إنه يتحدث مثلنا، ونخشى أن ينشر الموت هنا كما انتشر في مناطق كثيرة ليست بعيدة عنا، فالسلاح كثير وهم يحفرون حفرا كبيرة كأنها الأنفاق!

- ألا تعرفون عنه شيئا أو عن عمله؟

- لا نعرف أي شيء لكننا نعتقد أنك قادر على تخليصنا من هذا الشر وهكذا أخبرنا الكجور، وقال إنك لا تشبههم وتعرف كيف تتعامل معهم،كما أنك مسلم مثلنا، ويقول الكجور إنك مبعوث إلهه لإنقاذنا من الموت!.

- أنا...!!!؟ وقهقهتُ مستغرباً من هذا الاعتقاد البدائي الساذج!!.

- لا يهمني معتقدات الكجور لكنه يعرف كثيراً بالتأكيد، ويجب أن تساعدنا فالناس هنا لا يعرفون سوى الصيد وحياة الغابة، والكجور يؤكد لنا أنك المخلّص.!!

- بالله عليك، لا أحتاج إلى هذه الخزعبلات لأفقد ما تبقى من عقلي؛ المهم: أين ستمضي بنا الآن؟

نظر إليّ بحزن:

- سنصيد التماسيح الصغيرة فهي أطيب أسماك البحر على الإطلاق...!!

وتبسّم باصطناعٍ!.

هوّمتُ بيدي مستخفاً بهذا الصيد الغريب ومستهجِناً له فأنا لا أعلم أحداً يأكل لحم هذا الحيوان البرمائي المفترس، وبينما جرى بنا الماء كانت ضحكات الحاج عثمان تتوارى بين صخب الغابة ونشيد حيواناتها الليلية التي بدأتُ أسمع ألحانها بالأصوات نفسها التي كنت أحسبها صرخات الموت الطائف في كل مكان، كان الحاج عثمان يعرف أن هذه الرحلة ستكون غريبة على ابن المدنيّة الضائع الغريب.

لمّا انتصف الليل، وبينا كان البدرُ مكتملاً كرغيف شامي مستدير، عليه هالة صفراء مضيئة، أبحرنا سابحين بين الروافد المتصلة حتى وصلنا إلى ناحية مستديرة من نواحي النهر كأنها بحيرة مخفية ثم وضع الحاج عثمان على فمه قصبة قصيرة منقورة تشبه المزمار، ثم

أخذ ينفخ فيها دون أن أسمع صفيرها أو تنغيمها ثم لم يلبث قليلاً حتى تحركت صفحة الماء وبدت كأنها نبع يفور من حول الزورق فنظرت إلى هذه العجيبة فإذا حولنا بضعة تماسيح متوسطة الحجم يزيد طولها عن نصف متر تُحرّك أذيالها بخفة وهدوء كأنها تبحث عن شيء ضائع، ثم بادر الحاج عثمان بسرعة إلى حباله وألقى أنشوطة منها على أحد هذه التماسيح وأدخل فكّه في عقدة حبل دائرية، ثم شده على الفك، وأحكم رباطه، ثم بادر إلى ذيله فأمسكه بيده، مديراً قبضتَه بأصابعه كلها حول الذيل المضطرب ورفعه إلى بطن الزورق بشدة وضربه على ناحية من رأسه فوق عينيه بمطرقة خشبية فهبط على سطح الزورق بلا اضطراب، بينما فرّت التماسيح الشبقة من هول المفاجأة، فضحك الحاج عثمان وقال:

– أتريد المزيد من هذه التماسيح الغبية التي لا تقف أمام ذكاء الإنسان؟

– كيف تصطادها يا حاج! فهذا مشهد غريب لم أر مثله في حياتي!؟

– الأمر سهل أيها الغريب، كل ما عليك فعله هو أن تعرف نقطة ضعف القوي فتأتيه منها – قالها وهو منتفخ متفاخر –.

– وما هي هذه النقطة!؟

– هذه التماسيح بلَغَت حديثاً وهي تبحث عن أنثاها، وأنا أنفخ في هذه القصبة فأصدر أصواتاً لا تسمعها إلا هي وتظن أنها الأنثى المطلوبة، ولأن

هذه التماسيح عديمة الخبرة ولا تميز الأصوات بدقة التمساح الكبير فإنها تقع في حبالي دون عناء.

- ولكنك تحمل رمحاً في يدك!

- تأتينا أحيانا تماسيح كبيرة تمزق حبالنا بقوة فكيها فأضطر إلى استخدام الرمح.

واصل الحاج عثمان هواية صيده الغريبة وهو يتحدث عن لذاذة طعم التمساح الصغير وتفضيله على طعم الكبير، وأنا أتأمل قوة هذا الإنسان وقدرته التي وهبها له الله ليتكيّف مع هذه الحياة ويغلب أقوى حيوانات النهر الكبير وأشرسها.

في الصباح كنّا قد عدنا إلى أكواخ الحاج وقد علّق التماسيح المصطادة من أذيالها المحرشفة إلى جذع شجرة مانجو ضخمة، وقد أخذ يسلخ جلدها الغليظ الناتئ من ناحية الذيل بعد أن يقطع في جلد الذيل مقطعاً طولياً بسكّينه، وما إن فرغ من الذيل، حتى سلخ باقي جلدها الحرشفي كأنّه كنزة صوفية يخلعها صاحبها، حتى وصل إلى رأس التمساح فقطعه ونزع أنيابه ثم اتّجه به ناحية النهر فرماه على شاطئه للأسماك والتماسيح وطيور الغابة المفترسة التي كانت تنظر بلهفة إلى طعامها من اللحم الطازج الشهي، فهمّت به تمزيقاً وتقطيعاً وتمزيعاً ولم تترك فيه عيناً أو موضعاً طرياً، وترك الحاج عثمان بعضها ليتسلّى بالصيد في أصائل الأيام قبيل الغروب حيث يتركها تنتن قليلاً ثم يغرز فيها حديدة معقوفة

متينة مربوطة بحبل متين مصنوع من لحاء نباتات قوية تتسلق سيقان الأشجار العالية، وهو إن استعمل هذه الطريقة يعود على أهله بتماسيح وأسماك كبيرة عرفت منها سمك «القرقور» ذي الشاربين المتدليين من فوق فمها المليء بالأسنان الصغيرة، وسمك «العجل» الضخم ذي الطعم اللذيذ وقد يصل طول الواحدة منها إلى نصف متر، وأسماك عجيبة أخرى سوداء وبنية ومنقطة بالأحمر لم أعرف أسماءها، والبديع فيها أن ألوانها من ألوان أعماق النيل الموحِل، وتنافس في أحجامها تماسيح النيل الكبيرة .

كانت الأنياب من نصيب الكجور «مايوم» الذي يستخدمها في أدويته وطقوسه، حيث يعلّق بعضها على رقبته، ويطحن الأخرى بعد نقعها وغليها، ويجعلها في وصفات الدواء الشيطانية التي يعدّها، وأما جلد التمساح فهو يستخدم عند الحاج عثمان وعائلته كدرع يصدّ به أنصال الرماح في أيّة معركة تطرأ، وفي مغالبة حيوانات الغابة المفترسة التي كانت كثيراً ما تتسلّل إلى عرصات أكواخه باحثة عن الطّعام والدّجاج والأبقار التي يربّيها الحاج عثمان ويستعين بها في دغله، أو كان يجعل من جلودها ملبساً لأولاده في موسم المطر، أو ينشر بعضها مما انشقّ أو تمزّق فوق سقف قوطيّاته النباتية خشية تسلّل ماء المطر من بينها، وقد يبيعها مقابل بقرات من نوع «الزيبو» النحيلة قليلة الحليب والدَّرِّ إلى بعض التجار إذا ذهب إلى بلدة عامرة في إحدى السنوات فيأخذ من جلدها

ما كان حديثَ الصيد ناعمَ الملمس سهلَ الطيّ، كما قد يبادل هذه الجلود ببعض البقر عند بعض القرى المحلّية لصناعة مراقع الطبول النيليّة التي يعشقها الأفارقة ويتقافزون على إيقاعها.

فاحت رائحةُ اللحم الأحمر من فوّهة المقلاة المتفحمة السَّفْعاء الكبيرة، وقد جعل مع اللحم عظامَ عمود التمساح - فأطيبُ اللحم ما اختلط بعظم - وأخذ يحرّكه بمغرفته الخشبية الطويلة على نار فحم مستورد من شجر كردفان يقولون إنه الأفضل ولم تغيّره رطوبة الأدغال الاستوائية، وقد تحلّق أولاد الحاج عثمان من حوله ينتظرون الوجبة الدسمة، بينما أخذت نساء الحاج أكباد التماسيح وقلوبها وكُلاها، وجعلن يغسلنها، ثم ألقينها في النار مباشرة، فاسودّت من لفْح اللهيب وصلْيه، ثم ما لبثت أن تلقفتها الأيدي والأفواه يتصبّرن بها قبيل نضوج الوجبة الدسمة المنتظرة، وبادر الحاج عثمان فاختطف شطراً من كبد مَصْليّة من النار بخفّةٍ، ثم صبّ عليها من كيس مرارة التمساح الخضراء المرّة، وجعل يأكل الكبد المغطّس بالمرارة وقد تلبدت قسمات وجهي تقززاً من تلك الأكلة الغريبة، وزاد تقززي عندما عرض عليّ ضيافته المرّة تلك، كما هي العادة في تكريم الضيوف بالأكباد الممررة!!.

لم يستخدم الحاج الزيت في قليه وإنما كان يكتفي بحرارة الجمر وتوزيع هذه الحرارة على اللحم من خلال التقليب المستمر مستفيداً من الدهن الذي يذوب من اللحم دون أن يحترق شيء من هذا اللحم،

فكان أشهى مما نصنعه في بيوتنا بترك اللحم ينضج في ماء المقلاة حتى يجف ثم نضع الزيت ليتقلّى به فيكون طعمُه قد أنهكه غليان الماء واستلب نكهته، وبخّره.

- الفطور جاهز الآن يا أولاد! كلوا ما تريدون ولكننا سننتظر الكجور ليفطر معنا - هكذا نادى بهم الحاج عثمان -.

ولم ينتبه الحاج أنني كنتُ أنتهب على غفلة منه بعض اللحم كلما تطايرت الرائحة الزكيّة المتدثّرة بدخان الحطب الرطب، كان طعمه ليس كالسمك بل هو لحم حقاً.

كانت تلك الأمسيات تتكرر، وكثيراً ما كنا نخوض في ماضينا نستخرج منه مواضع العبرة ومحلات الفكاهة ومنازل الحزن، كان الحاج عثمان يُسرّ إليّ أحياناً بحكاية زواجه من امرأتيه اللتين لم ألحظ مرة أن إحداهما تغار من الأخرى، فكأنهما أختان متفقتان في كل شيء، وحتى الأولاد فإنهم يخاطبون المرأتين بلفظ الأمومة، ويعيش هذا الولد في منزل أم الآخر، فيزداد تعجبي من حالة هؤلاء القوم وتقاليدهم.

كان الحاج عثمان متزوجاً في قبيلته قبل أن يجني جنايته وله أبناء وبنات لا يعرف عنهم شيئاً، ولم يكن مبالياً كثيراً لهذا الأمر فهو واثق من أن رجال القبيلة فيهم الخير فأحدهم لن يلبث أن يتزوج بامرأته، وسيسعد بأنها جاهزة وكاملة بجيشها وأولادها فلن يطول به الزمان ينتظر المزيد من الذرية فهم سيحسبون عليه... هكذا كان الحاج عثمان

يصور تلك العادات التي تدور لها عيناي من الذهول والاستغراب، ولا يتردد بمفاجأتك بأنه سيفعل الأمر نفسه لو مر بتلك الحالة في غير ظرفه.

سألتُه مرة وأنا أصيد تمساحاً وأشدّ فكيه بحبل متين: ما الذي راقك في زوجتيك هاتين؟ فهما من غير ملامح كأنهما الشمع الأسود المصبوب في قالب خشن مليء بالثقوب والنتوءات الباطنة والظاهرة!!

كان الحاج عثمان يضحك ببرود في جوابه:

إنك لا تدرك معنى الجمال!! هِبة «زوجتي الكبيرة» لها عنق طويل كعنق الزرافة، وساقاها تسابقان الريح وتتسلقان الأشجار بمهارة تنافس القردة، أما دومة (زوجتي الثانية) فعيونها كعيون البقرة الوحشية، بل هي كعيني الغزال البرّيّ الكبير، ورأسها كأنه البدر في استدارته الكاملة، الجمال أن تكون الطبيعة منعكسة في مرآتك يا عارف!.

ولمّا رآني منفتح العينين من عجائب هذه العادات سارّني بمعلومة أخرى أشعلت فيّ ركام الضحك المكبوت:

- الزرافةُ خطَبَتْ لي الغزالَ؟

- لم أفهم!!

- زوجتي «هبة» زوّجتني «دومة» لتساعدها في أعمال المنزل والزراعة، وهي الآن تختار لي زوجتين أخريين، وتحاول إقناعي بأن أتزوّج عشرة لكي تخفف عنها كثرة الأعباء، فهي سلطان المكان وصاحبة الأمر فيه – يضحك –.

- هذا لا يجوز!!

- نعم أعرف! لذلك لا يمكن أن أزيد على أربعة.

الطبيعة الصاخبة كانت حاضرة في حياة هذا الرجل ومجتمعه الصغير، وإذا نظرت إلى الحاج عثمان تجده يخاطب أبناءه وبناته بأسماء الحيوانات وصفاتها، فالكبار يلقبهم بأسماء الحيوانات المفترسة هذا الأسد، وذاك النمر، والآخر تمساح، والصغار يلقبهم بأسماء الطيور الجارحة صقر وعقاب وحدأة... وأما البنات فبقرة وغزال وتيتل وسمكة، ويضيف أحياناً أسماء الزواحف كالأصلات والحيات...، فإذا كان سعيداً بولد من أولاده أضفى عليه صفات بعض الحيوانات الشجاعة والذكاء والحرص والنشاط، وإذا كان غاضباً ألحق بهم صفات حيوانات أخرى كالجشع والكسل والمكر والقذارة... فكل شيء هنا ينشأ من الطبيعة. وأما أنا فلا أكاد أعرف أحد أولاده إلا بهذه الألقاب رغم أن لكل واحد منهم اسماً عربياً ينسونه في مناداتهم ومخاطباتهم.

وتمضي الأحاديث بلا توقف، و كنت أحدّث نفسي بين كل هذه الأحاديث والأحداث:

هل سنحت الفرصة لأتحدث مع الحاج عثمان وصديقه الساحر، لإخراجي من هذا المكان!؟

وشدّتني لهفتي وأنا أنتظر مجيء الساحر وأجول بنظري متطلّعاً إلى أية حركة تدل على قدومه.

برز هذا الساحر الغريب من الموضع الذي لم أتوقعه حيث أتانا يَجْدِف زورقَه الصغير بعصا طويلة كأنها عصا الخُدْريّ التي كانت تتثنّى كلما اعتمد عليها من وسطها ضارباً بطرفها الممتلئ العريض قاعَ النهر، ولكنه لم ينزل بناحيتنا، بل واصل تجديفه حتى دخل غيضةَ قصبِ البرديّ ثم اختفى بينها.

كانت نبضات فـؤادي يتلاحق خفقانها كأنها في لحظات السباق الأخيرة، وأصبح إحساسي بالأشياء مضاعفاً عما كان عليه فكنتُ أحسّ بقرب الكجور منا، وأنه لابد أن يظهر لنا من ناحية الغيضة الخضراء ولكن حركة الأغصان من خلف الأكواخ جعلتني أضطرب فوق اضطرابي فلعله سَبُعٌ جائع، أو متمرد متسلل أو أي شيء إذ كان كل شيء يثير خوفي في تلك اللحظات.

فاقتربت من الحاج عثمان فابتسم لي وربَت على كتفي وانطلق ناحية الجلبة ثم ما لبث أن تبدّى لنا الحاج عثمان والكجور معاً يتضاحكان بهمسٍ وهما ينظران إليّ فكأنهما كانا يتحدثان عن لحظات رعبي الواجفة، وقد شدّني إلى هيئته الجديدة وجود قطعة حديدية مألوفة لديّ!

- إنها عوزي!!

رشاش «إسرائيلي» صغير كنتُ كثيراً ما أشاهده في مواجهات الحجارة مع جيش الاحتلال، فاستبدّ بي الشَّكّ وشعرت كأن أحلامي طاشت في هواء أسود متقلب المزاج.

افترشتْ إحدى زوجات الحاج عثمان – لعلها «هِبَة» فهي الأبنوسية الطويلة – قطعةَ قماش كريمية اللون منفوشة الخيوط على الأرض، وجلس الساحر مايوم والحاج حول مائدة اللحم والعصيدة والمُلاح المصبوب على قوالب « الويكة» أو البامية الناشفة المطحونة بطعمها الحامض اللاذع، بينما تراجعتُ قليلاً للوراء أبحث عن عصا غليظة أو سكين حادة أو حجر كاسر، فيما كان أولاد الحاج عثمان لا يزالون يتناتشون نصيبهم من المقلاة الكبيرة مباشرة، وهم يتضاحكون ويتقافزون، وجلست المرأتان قريباً منهما يسكبان لأنفسهن اللحم والإدام في مواعين كبيرة، وهن يختلسن النظر إلى الساحر المهيب وإليّ وكأني بهن يستعجبن من تأخري عن الرجال.

التفت إليّ الساحر مايوم وابتسم بشطر وجهه، وكأنه يدرك ما كان يجول في خاطري، ثم أشاح ببصره عني، وطفق يتحدث مع الحاج بصوت خفيضٍ أثار ريبتي مجدداً، وكانت ظنوني تُطيف بي هذه المرة في مجالات أرحب مما كانت قبل ابتسامته اللئيمة تلك، وانعقد لساني من الخوف واستدارت عيناي على ظهر الساحر الذي رفع قطعة السلاح إلى جانب فَودِه وكأنه يتعمد استفزاز خوفي المستفز ابتداءً، ثم التفت إليّ ثانية وبادرني بسؤال بارد:

– ألا تأكل من هذا اللحم فهذا أطيب طعام تجده في المنطقة؟ ألا تأكلونه في دياركم؟

- أبداً أبداً!! لا نأكله بالمرة!! - أجبتُه وأنا أصطنع التجلّد والهدوء! -

- سمعتُ أنكم تمنعون الناس من أكله أليس كذلك أيها الفتى!!؟

- أبداً أبداً!! هاأنذا آكل!! العلماء عندنا يعتبرونه من سمك البحر لذلك يبيحون أكله، إلا أن بعضهم ممن تتحدث عنهم جعله من ذوات الأنياب التي تغتذي باللحم فمنَعَ ذلك، ولكنني أخذتُ بالرخصة وأكلت احتراماً لضيافتكم، ورغبة في التعرف إلى هذا المأكول الجديد!.

بدا لي لأول وهلة أن الرجلين لم يفهما من هذه الثرثرة الفقهية شيئاً لذلك لم يكترثا بما قلتُ، وتعجّبتُ من نفسي كيف أتفوّه بهذه المعارف بحضرة أولئك البدائيين!! ألم يكن أولى بي أن أقول إنها فرصة لأجرِّب طعمه على الأقل، فهذا قد يشعرهم ببعض الأنس معي، رغم أنني قد جرّبته خلسة قبيل وقت قصير، ولكن الكشف عن ذلك لا يدل على تهذيب واحترام للوليمة وصاحبها عندنا.

- تفضّلْ! هذا لحم طيب!

- لا!! شكراً لك.

- هل أنت خائف منا!!؟

- لا لا!! سآكل ولكنني لم أَطْعَمْه من قبلُ!. - كذبة بيضاء فرضها الخوف -

كان اللحم الأحمر المتماسك يتحرك ببطْء بين قواطعي وطواحين أسناني، دون أن يتدخل اللسان في تمييز هذا الطعم لانشغال ذهني بهذه

القطعة الحديدية المعلّقة على كتف هذا الشيطان المشوّه!.

- إننا نحتاج إليك أيها الغريب لتخلّصنا من هذا الشر - هكذا تكلم الساحر بعربية فصيحة لم آلفها من قبل - ثم ألقى السلاح بيني وبينه، على أنه أقربُ إليّ منه، وتابع القول بلغة بدت لي أشبه بلغة العسكر الحازمة الواثقة:

- هناك «خواجه» غربي اسمه ديفيد شتاينر، معلوماتنا الأولية تفيد أنه ألماني الجنسية، يعمل في مؤسسة إغاثية أوروبية، يستخدم طائرات صغيرة في تنقلاته، وهي تحمل شعارات دولية وإنسانية، ومعلوماتنا تقول إنه يتستر بالعمل الإغاثي ويقوم بتكديس السلاح وتوزيعه على الجماعات المتمردة هنا، هل أُكمِل؟!... سأكمل!

- أما عملي فأنا أعمل في استخبارات الجيش السوداني، ويساعدني الحاج عثمان منذ سنة لجمع معلومات عن هذا الرجل والشبكة التي معه!!.

- معقول!!

- أنا أتنكر في هذا الزي وهذه المهنةِ لما لها من هيبة لدى عامة الناس هنا، كما أنهم لا يستغربون من وحدة السَّحَرة وغيابهم الطويل، كما يتعامل معهم المتمردون المحليون بالكثير من الهيبة والاحترام.

عقدت الدهشة لساني وأعدتُ النظر في الساحر الفصيح ذي الهيئة العجيبة، وفي الحاج عثمان رجل الغابة الساذج الذي لا يكاد يؤبَه له، بينما

كان الحاج يضحك ويبتسم بكل عضلات وجهه وصدره، ويضع يده على فيه ليخنق شهقات القهقهة الصاخبة، فلم يكن ذلك يخطر ببالي خَطْرةً، ثم وضعت جبيني على راحة يدي وأدرته كمن يطحن المفاجأة بين جبينه وراحته، فيما واصل الساحر الضابط «مايوم» الحكاية:

- لا نعرف عن ذلك الألماني أشياء كثيرة، إلا أنه خطير، ويتحدث بلغات غريبة، وأعتقد الآن أنك بلون بشرتك الفاتح ستكون مفيداً جداً لنا لأننا في وضع خطير الآن ونحتاج لمعرفة ما يجري تنفيذه الآن، وقد تكون مفتاحاً يُدخلنا إلى طليعة المتمردين القريبين من هذا المكان، فهم بسيطون للغاية لأن معظمهم لم يخرج من الغابة بالمرة فلا يميزون الغرباء الأجانب من ذوي الألوان «الحلبية». وتابع بعد أن جال ببصره من حولنا ومن ورائنا قليلاً:

- نعتقد أننا نستطيع خداعهم من خلالك!!

- لكنني... آه يا رجل ماذا تقول!! ما دخلي أنا بكل ما تقول؟ أنا صحفي!!

- أجاب بحزمٍ: دعك من الاعتراض الآن، لقد وصلتنا المعلومة التي تتحدث عن زيارتك لجوبا، وكان تقدير «الجهاز» أنك قادر على خدمتنا لو وجدنا المدخل المناسب إليك فأنت عشتَ معنا مدة طويلة وكان بعض رفاقك في الجامعة من زملائنا في «الجهاز» وكنا نراهن أنك كنت ستسعى لهذه الخدمة إذا سهلنا لك مهمتك الإعلامية! ونحن - كما لا تعلم - من

سهّل لك ركوب الطائرة العسكرية، إذ يحظر على الأجانب ركوبها بالمرة، وكان من المفروض أن توصلك حامية جوبا العسكرية إليّ فور وصولك بسرية مطلقة وبالطبع لم تكن النية لنجعلك تنهي مهمتك الإعلامية وكنا سنغطّيك بالطبع، لكن الطائرة سقطت في منطقة عملياتنا الاستخبارية، وقد توجه فريق منا لإنقاذ الطائرة فأدركناك على قيد الحياة في حالة سيئة لكن وضعك أفضل بكثير من بعض مَن نجا، أما الآخرون فلا حول ولا قوة إلا بالله!! جرف تيارُ النهر بقية الركاب وبقية جسم الطائرة الأمامي المحطّم.

- ثم تحدّث هامساً: لقد أخفيناك بعيداً عن الأعين مدة من الزمان، ولم نُذِع لأحد أننا عثرنا على أحياء خوفاً من وجود جواسيس داخل مجموعتنا من الجنود المحليين.

- وأصحابي: سيف ومنقو ماذا جرى لهما؟ صرختُ بلهفةٍ.

- لا أعلم عنهما شيئاً فقد يكونان ممن كُتبت لهم النجاة أو ماتا، فنحن لم نجد سوى جثث قليلة وقد جرف التيار البقية، وألقاهم في بقعة نائية، ثم استقرت أجسادهم في طين قاع النيل، فأكلتهم أسماك النيل والتماسيح أو قتلتهم ثعابين النهر المنتشرة على ضفافه وترعه ومستنقعاته.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!!

- عموماً أنا لا أعرف أسماء من كُتبت لهم النجاة فقد يكونان بخير!،

لكن إن كانوا ماتوا فإلى رحمة الله، هم شهداء إن شاء الله، والمهم الآن أنه لابد من مساعدتنا لكشف سر هذه العصابة، لديهم الآن مطارات صغيرة مؤقتة أقيمت مؤخراً لسبب نجهله، ولديهم أيضاً أسلحة متطورة ومناظير رؤية ليلية، ويتجنبون مناطق العمليات ويتحركون في خطوط إسناد خلفية بعيدة كهذه المنطقة.

- ولكنني لست عسكرياً ولا أفهم في هذه الأمور!.

- اطمئن فلديك مهمة محددة تتعلق باللون لتقترب من الوسط المحيط بهؤلاء إذا لاحت لنا فرصة اختراق في إحدى هذه المجموعات وهي مهمة سريعة قد تكون لساعات فقط، ونحن هنا نتمتع بغطاء كامل منذ سنوات ولا يشكّ بنا أحد، ومن الضروري أن تبقى بجوار الحاج عثمان وأهله، وسأوافيك بالتفاصيل أولا بأول، وسنعيدك إلى حاميتنا العسكرية فور انتهاء مهمتنا، لأننا نخشى أن الوقت يمر بسرعة، وهناك أمر كبير يخططون له.

- لا أدري ماذا أقول لك، كل ما يمكنني قوله إنني لا أصلح لهذه المهمة، والمهم ألا يطول الأمر فأنا أشعر بالإعياء والمرض وأحتاج للكثير من العناية والعلاج.

- الحاج عثمان سيتكفل بكل شيء بحسب إمكاناتنا المحلية، ونرجو أن تسامحنا فالأمر جد خطير؛ وعليك أن تتذكر أنك صحفي ومن فلسطين يا رجل!! ألم تُعتقَل من قبل!!؟ - واستعرَضَتْ أسنانُه البيضاءُ

الضاحكة -.

صاح الحاج عثمان بنسائه ونَدَهنّ طالباً القهوة الحبشية السوداء «الجَبَنة» وشربها الاثنان، وأنا أنظر إليهما في قلق يشوبه أملٌ ما لا أدري كيف نشأ.

مرت أسابيع طويلة في مخيم الحاج عثمان توطدت العلاقة معه ومع أطفاله، وكان نساؤه يشاركننا السمر في بعض المرات، ويمنعهن جهلهن بالعربية من المشاركة فيكتفين بالاستماع إلى أحاديثنا بشغف واهتمام، فقد انعزلن منذ سنوات طويلة في هذا المكان النائي، وابتَنَينَ مع الحاج عثمان وأولاده قرية صغيرة، ورضين بالعيش معه في هذه الأدغال الموحشة، حرصاً على سلامته من طُلاب الثأر الذين يطلبونه، إذ إن هؤلاء لا ينسون أوتارهم مهما طالت السنين، وقد اعتاد الحاج عثمان العيش هنا رغم أن أموره تحسنت، وكان يمكنه الحصول على إقامة آمنة في العاصمة الخرطوم أو إحدى عواصم الولايات ومدنها في هذا البلد الشاسع لو أراد، إلا أن شغفه بالغابة أسَره، واستولى على كيانه، كما يزعم.

أما أنا فلا أذكر أن عيني وقعت على واحدة منهن إلا عند مواجهة غير محسوبة، وكنتُ أعجب من رؤوسهن البيضيّة المكوّرة، وشعرهن الزغبي الفاحم لا يغطّيه سوى خضرة الغابة، وسواد المساء، فتختفي فيهما ملامح

كل شيء.

كنت أخرج مع عائلته بنسائه وأطفاله كل أربعة أيام أو خمسة صوب جُبَيل صغير على بعد ساعة من الأكواخ نستخرج النشاء الحلو من ساق شجرة «الساج»، نقطع الشجرة الضخمة التي هي أشبه بالنخيل في رشاقتها واعتدالها إلا أنها أرقّ حاشية ولحاءً من نخيلنا المدبّب السيقان، ثم نشق الساق شقّاً طوليّاً ثم ننتزع اللحاء بشد أطرافه من جهتيه ونجرف من جوفه اللبّ الأبيض الهش كأنه لب جوز الهند، ثم تأتي النساء فتضعنه في مصفاة خشبية كبيرة ويغطسنه بالماء ثم يعجنّه عجناً ليخرج منه عصير أبيض مصفرّ لا يلبث أن يتحجّر فيكون منه النشاء.

وفي البيت عند وصولنا يعجنّ النشاء مع الموز بعد دقّه ويطبخنه بالماء على فحم هادئ في قِدر كبيرة فينكمش إلى نفسه ويسودّ لونه، ثم يدلقْنه وهو كعجينة الخبز على ورق شجرة خضراء غليظة الملمس، ويلففنه لساعة فيكون بذلك قد نضج وصار جاهزاً لنتحلّى به بعد وجباتنا الشهية!!.

انفجر صراخ امرأة في ليلة كئيبة ثقيلة الوطء من شدة الحرّ وتعالي الرطوبة وتراكم الهموم، خرجتُ مذعوراً نحو الصوت فإذا بالجيمع يخرج من قوطياته ثم يدخلون نحو قوطية إحدى نساء الحاج عثمان، ولم يكن الحاج فيمن رأيتُ، فتراجعتُ إلى الخلف حياء في حضرة النساء

المتبدّلات ورفعتُ صوتي أسأل إن كان ثمة حاجة لمساعدة!! لكن أحداً لا يردّ، عند ذلك أقبل الحاج عثمان من بطن الغابة ملهوفاً وبيده حشائش وأوراق ولحاء شجرة كينا، ثم وقف قريباً من أهله المتجمهرين فعلم أن مكروهاً حدثَ.

كان الفتى في السابعة من عمره كثير اللعب والحركة، ودائما ما يحمل عصاه المدببة كأنها رمح يحاول اصطياد الطيور والزواحف، يغنم أحياناً ويخيب أحايين، كانت الملاريا تصطاده هذه المرة، وقد أرهقته حركته واشتعال نشاطه، فانهارت مفاصله وعضلاته أمام وحشيتها ثم سخن جسمه وغاب عن الوعي، ووصل ذلك الطُفيل القاتل إلى دماغه، وكانت قشور لحاء شجرة الكينا في قوطيات النساء قديمة متعفنة من أثر سقوط المطر المتتابع عليها، فلم ينفع غليُها في إعداد الترياق، ولم ينفع الفتى أيضاً استدراكُ أبيه لوطأة المرض وعَجَلتِه فقضى عليه قبل أن يصل إليه علاج أبيه.

واشتدّ علينا ثقل الليل وبتنا نناظره ونلحّ عليه في استعجال انسلاخه لندفن الفتى ونبعده عن ناظري أمه الثكلى التي لم ينقطع بكاؤها المفطّر للفؤاد، المثير لبكاء الأخريات من صويحباتها وضرائرها، وشهقات الأطفال والبنات الصغيرات والمراهقات.

ولما انتشر ضوء الفجر وبانت لنا لوحة الأرض المصبوغة برماد بقايا الليل، حمل الحاج عثمان ولده باكياً نحو البحر، فسجّاه قرب الشاطئ

النيلي الذي لم يخشع لتلك المصيبة فظلّ مكفهراً عكر المزاج، كنتُ أناقل الماء في دلاء بلاستيكية بيضاء مصفرّة ليغسل الحاج ابنه من ماء النيل الطيني بعد أن يتركه قليلاً في « الجَرَكانة = الدلو» فيترسّب التراب أسفلها، ويطوف بيده الملفوفة بقطعة قماش داكنة على جسده الأسود النحيل، ويوضّئه ويقبّل رأسه، ثم يكفّنه في جلابية بيضاء جديدة؛ وقد تحلّق كل أهله حولنا خاشعين باكين، وأشار إليّ الحاج أن أحفر في جوف الغابة التي لا تبعد سوى عشرات الأمتار عن الأكواخ، فحملتُ مسحاةً صدئة قديمة واخترتُ مكاناً خضِراً بين شجيرات ملتفّات، حسِبتُ أن ذلك سيكون أكثر أمناً له وتخفيفاً، وكأنه في كوخه الصغير.

وبينما كنت أحفر والحاج يحمل حزنه بين يديه، وبينما كانت ذيول الليل تسحب نهايات أرْدِيتها، حتى وطأت قَدَما رجل - كأنه النقيب الضو- آخرَ رداء رمادي.

- نعم إنه النقيب الضو!! هذا هو اسم الساحر«مايوم» كما أخبرني الحاج عثمان قبيل ليلتين أو أكثر، ولم تكن أذني تحتمل تحميل هذه المعلومة في عقلي المنهوك.

أشار النقيب الساحر بهيئته السحريّة إلينا بأصابعه وكأنه يطلب منا الابتعاد عن آذان قرية الحاج عثمان الأهلية، وكأنه استراب من هذا الجمع الكبير، وظهر لنا من تكرار الإشارة أنه أمر جليل خطير، وبادرنا بالخبر قبل أن نبتعد:

– سنتجه بعد قليل إلى الضفة الأخرى من النهر، سنمشي نصف يوم على أقدامنا، لنكون على مقربة من معسكر جديد أقامه شتاينر ورفاقه، وصلتنا معلومات سرية، تفيد بأنه ينقل شحنة أسلحة متطورة، ولابد من معرفة مستقرها، لاسيما أن هذه المناطق غير خاضعة للجيش، وهي بعيدة أيضاً عن معسكرات المتمردين، وهذا ما يجعلنا نشكّ في خطورة الأمر!!.

– اقترب مني الحاج عثمان وهمس في أذني أن أذهب إليه، وأخبره أنه سيأتي بعد أن ينتهي من مهمة عائلية صغيرة، فأكبرتُ الرجلَ وعلمتُ أنه جلْدٌ صبورٌ عظيم النفس، وألحّ عليّ أن أذهب.

توجهتُ صوب الساحر النقيب وأخبرته الخبر فحوقل واسترجع! ولكنه خشي من مواجهة كل ذلك الجمع وهو المشغول بأمر لا يحتمل التأجيل أو تبديد الوقت في حزن أو غيره، وما لبث الحاج عثمان أن أقبل ودمعته تختلط مع العرق وندى المطر، فعزّاه النقيب وبادره بغلاظة:

– أمامنا مخاطرة كبيرة، وعلينا أن نكون حذرين فنحن لا نعرف طبيعة الأجهزة التي يمتلكونها أو وسائل الإنذار والمواجهة. لقد بنوا معسكرات سريعة غير مكلفة، لا ينفقون عليها أموال تأمين كبيرة، إنها عابرة وتتغير بسرعة كما أنهم في منطقة آمنة.

– كنتُ أسأل مغتاظاً من ركام المعلومات هذا: من هؤلاء؟ وماذا يحدث؟!

– أخبرناك سابقاً وستعرف المزيد في الطريق – قالها النقيب بنمطية

عسكرية مقيتة -!.

- سأجهّز الزورق وأحضّر لكم بعض الزاد ولابد لي أن أرافقكم في الرحلة فهذه فرصتي لأكفّر عن خطاياي – قال الحاج عثمان -.

- ولكن عيالك وأهلك بحاجة إليك، من الحكمة أن... – قال النقيب الضو -.

- لا تكمل أرجوك فليس أوّلَ ولد أفقده، أو حبيب أفارقه! وكالعادة! لن أشارك في العمليات المفتوحة، وسأكتفي بمراقبتكم من بعيد فهذه عملية أمنية استكشافية، وليست عملية حربية عسكرية، أليس هذا ما كنتَ تقوله لي دائماً!!. وضحك بألم.

- على بركة الله إذن، وسنساعدك في تجهيز المركب.

- ولكن ما دوري أنا في هذه المهمة؟!! إذا لم يكن هناك لزوم لي الآن فسأنتظر هنا – قلتُ ببرود الجاهل.

- من الأفضل أن تكون معنا فنحن نخشى من دوريات المتمردين التي تتجول في المنطقة إذا كانت لهم عملية كبيرة وقد تقع أسيراً ولا يسمع بك أحد بعد ذلك! - قال الساحر النقيب-.

- هل سأبدأ مهمتي الآن؟!!

- لا لا فهذا ظرف طارئ ونخشى عليك من الوقوع في أيديهم، هيا بسرعة! أرجوك! قم!!

جَهَّزَنا الحاج عثمان ببعض أرغفة دُخْنٍ مصرورة ولحم مشوي أسود

قاسٍ وتمر يابس نبلّه بماء النيل إذا أردنا مضغه ثم انطلقنا ماشين على أقدامنا على مقربة من الْتِواءات النهر بين الأقصاب العالية.

مضى نصف النهار في طريقنا حتى وصلنا إلى قوطيّة صغيرة تستتر بين أيكاتٍ ملتفّة الأغصان، فانتقلنا إليها بسرعة، ولمحتُ قريباً منا زورقاً صغيراً في أَكَمةٍ مطلّة على النهر لا رمل تحتها بل موج ينبئ عن عمق المياه تحتها، تتدلى منها أعشاش قشٍّ بيضيّةٍ صغيرة من خيوط متصلة بنباتات البردي المتزاحمة منسوجة نسجاً بديعاً، بينما تأتي عصافير صفراء صغيرة تخالطها قوادم سوداء تصفر من فوقنا كأنها تنهرنا وتطردنا عن أعشاشها.

ثم اتجه النقيب الضو إلى الزورق واستخرج منه رشاشين ومسدساً وأعطى كل واحد منا رشاشاً، واحتفظ لنفسه بالمسدس مع «العوزي» التي كان يحملها.

- ما الخطة الآن؟!.

- سنمكث هنا في الليل وستأتينا التعليمات في الغد، ربما في الصباح أو الظهر حيث تقوم إدارة العمليات بإعداد خطة، وسنقوم الآن بفحص المنطقة حول الكوخ بغرض استكشاف المنطقة.

اتجهنا نحن الثلاثة نحو مسار النهر مقتربين من دائرة الخطر المجهول، وفي طريقنا تَفاجأنا برؤية حيوانات نهرية نافقة! أفراس نهر وتماسيح صغيرة وقرود ونعام وطيور مائية وغزلان... كلها نافقة، ولم

يمسّ لحمَها المتحلل أيّ من جوارح الغابة وسباعها أو حتى ديدان الموت التي تتكاثر كالنمل في أجساد الجثث أو حتى العفن الأخضر، وكأنها مسمومة تنفر عنها هذه الضواري والطفيليات، حتى إن الأسماك الكبيرة والصغيرة تطفو على الماء، بينما يرتمي عدد كبير منها على الشاطئ وقد انطفأت أعينها الزجاجية، وانكمشت حراشفها المتقشّرة الباهتة اللون.

- أقترح عليك أخذ عينة من الماء والتربة ومن هذه الحيوانات والأسماك وفحصها فوراً فهناك أمر غريب يجري!!، قلتُ للنقيب الضو.

- معك حق، سنعطي بعض هذه العينات للرجل، لم أرَ في حياتي مثل هذا المشهد! قال النقيب الساحر - ويبدو الإعجاب في عينيه من فكرتي-.

- أيّ رجل!؟

- أحد رجالي سيأتينا في الغد في مكان سنصل إليه قريباً.

- هل يمكنني العودة معه إلى الخرطوم؟ أنا على كل حال لست ذا فائدة!.

- نظر إليّ النقيب بغضب: لديك مهمة وستقوم بها!

انكمشتُ إلى نفسي بخجلٍ وغضبٍ فأنا لم أجرّب أن ينهرني أحد بهذه الطريقة المهينة لكنني شعرتُ أنني عديم الوفاء بتهرّبي من واجبٍ تجاه قوم عشت معهم وأكرموني، وأنقذوني أيضاً من الموت.

كان النقيب الضو بدأ يحذرنا من أكل شيء من هذه البحيرة، ونبهنا أنها بحيرة صغيرة، وهي ليست متصلة بالنهر كما نظن، إلا في موسم

الخريف الماطر، وكانت كثرة الروافد والبرك المائية والمستنقعات، تجعلنا غير قادرين على تمييز النهر من البحيرات والبرك.

في طريق العودة رأينا تربة سوداء ورمادية وحمراء - كأنها لا تنتمي إلى تربة المكان الذي فيه- تتناثر فوق الأعشاب الخضراء بفعل فاعلٍ ما، فأخذنا بعض التربة منها، ووضعناه في كيس قديم صغير من النايلون كنا نحفظ فيه بعض طعامنا، ثم عدنا إلى الكوخ وأدينا صلاتنا المكتوبة على عجلٍ، واستسلمتْ أجسادُنا المنهوكة للنوم بعد يوم مرهق، ولم يحلم أحدنا من شدة التعب بأي حلم أو كابوس على الرغم من اقتراب دوائر الخطر منا في يومنا المقترِب.

هجمت علينا الشمس الحارقة بسرعة في ذاك اليوم المنتظر، وصفعت وجوهنا المسمرّة والناشفة بلهيب أشعتها المتسللة من بين الأغصان، وكأن أوراق الأشجار تحولت إلى مرايا تعكس هذه الأشعة لتزيد من لهيبها الحارق، على الرغم من وجود بلل في هذه الأوراق يشير إلى مطر موسمي ضعيف ضرب الغابة ليلاً وأبقى بعض رطوبة ندية في تراب الغابة.

كان الحاج عثمان قد سبقنا وأعدّ لنا شايَه الأسود من ورق غابة شاي صغيرة وجدها في الجوار، وحلاها بالكثير من سكر القصب الذي جلبه معه وهو ذو لون يضرب إلى الحمرة ولا يكاد يذوب في الماء إلا بخفقٍ شديد، بينما شاهدناه يداري النار بالكثير من الأحجار الطينية المخلوطة بالروث وأوراق الأشجار، ويبعد عنها الأغصان الرطبة حتى لا تدخن

كثيراً، فينتشر دخانها ورائحتها المعروفة مع نسيم الهواء فيستدلّ أحدٌ علينا، فشربنا شاينا بأكواب بلاستيكية قديمة وحلّينا أفواهنا ببعض ثمار المانجو التي تشبه قلب الثور العجوز، بينما كان النقيب الضو يتحرك جيئة وذهاباً - من طلوع الشمس - وكأنه ينتظر قدوم رسوله في هذا المكان.

سمعنا أصوات تقصُّفِ أغصانِ بعض الأشجار تقترب منا فعبّأ النقيب مسدسه، وأشار إلينا أن احملوا أسلحتكم، فامتنع الحاج عثمان امتناع الواثق بعدم الخطر وأشار إلينا برمحه، أما أنا فقد انبطحتُ على بطني وراء أكمة في جوار الكوخ أنتظر إشارة النقيب الذي تحرك بخفّة نحو طرف الصوت يحاول الالتفاف عليه.

مضت دقائق ثقيلة قبل أن نسمع ضحكات النقيب الضو الترحيبية وقد أطلّ علينا ومعه شخص طويل القامة شديد السواد يلبس ثياباً كتّانية بيضاء متسخة يعلوها الطين وبعض زقّ طيور الغابة على ناحية كتفيه حيث تُسقِط فضلاتها مِن على الأشجار، وعجبتُ من لباسه هذا إذ هي أقرب للملابس الشتوية مما لا يناسب طقس هذه المنطقة الحارة، وفوق ذلك يتدلى من رقبته صليب كبير، وبدا لنا الرجل كأنه قسيس أو راهب.

- أعرّفكم على الأخ «حسن مايكل»، أحد العاملين معنا في الجهاز وهو قسيس أيضا لكنه مسلم – قال النقيب الضو ضاحكاً -.

- قسيس ومسلم؟؟! قلت أنا والحاج عثمان.

- نعم إنه من قبيلة الشُّلُك في ولاية أعالي النيل الذين نزحوا إلى

الخرطوم، ثم أعلن إسلامه وهو صغير وعمل معنا منذ أن كان في الصف السادس الابتدائي، وكانت أولى عملياته أن يلعب دور مسيحي في إحدى الإرساليات الأمريكية التبشيرية لجماعة «شهود يهوه» ومن يومها وهو يحب ممارسة دور رجل الدين المسيحي.

- وكيف تصلي يا حسن!!؟

- أصلي برموش عيني إذا كنتُ محاطاً بالناس، وإذا انفردت في مكان مغلق فأصلي على كرسي خشية أن يدخل علي أحد؛ وأحياناً يصيبني الكسل من كثرة ما أخالط هؤلاء الناس فالله يرحمنا، ولم يكتشفني أحد حتى الآن!! قالها باسماً.

- والله... هذه البلاد كلها عجائب وغرائب!!، ردّدتُها ضاحكاً.

- المهم أننا سنكون في المكان المستهدف عند انحناءة النهر الثانية بعد ثلاث ساعات حيث تتجه قوة خاصة للاستيلاء على الهدف ومصادرة ما فيه!

- وما دورنا نحن؟ قال النقيب الضو.

- سننضم جميعا إلى القوة بعد انتهاء العملية وسننتظر التعليمات وهذا كل ما لديّ.

- متى نتحرك يا حاج عثمان؟

- الأفضل أن تتحركوا الآن لنلتفّ عليهم من الجهة الشرقية حيث توجد هناك تلة صغيرة قريبة من المكان وأشجار عالية ستمكّننا من

معرفة ماذا جرى أثناء العملية.

- عندما نصل علينا أن نصيح باسم «سعيد» ثلاث مرات ليعرفوا أننا معهم وإلا أطلقوا علينا النار.

- على بركة الله فلنبدأ!!.

قبل مغادرتنا بادرتُ النقيب بالسؤال عن مصير العينة الترابية، وما شاهدناه من مناظر الموت في الحيوانات، وهل سيحملها هذا القسيس معه؟!

انتحى النقيب بصاحبه وحكى له ما رأى فالتفت إليّ قائلاً:

- صاحبنا سيتركنا قريباً، وسيحمل معه هذه الأغراض وبعض السمك الميت، وسيرسلها بعد ذلك بالطائرة إلى الخرطوم حيث لا توجد معامل إلا هناك!!.

ولكن «حسن مايكل» اعترض على الحمولة وأبى أن يحمل معه الأسماك وعينات الحيوانات خشية تعفّنها وانتشار رائحتها، ولم يحمل سوى العينة الترابية، ثم ما لبث أن ودّعنا بعد بداية تحركنا بقليل، وأخذ طريقه في الغابة وحده نحو الجنوب الشرقي.

وصلنا إلى التلة البعيدة بزورقين بدائيين بديا لي سريعين هذه المرة رغم طول التجديف، وكأننا ننحدر بها نحو شلال، وكنا ننظر من بعيد إلى الهدف:

تحركات بحرية من زوارق بدائية خشبية و أخرى من قصب البردي،

مزودة بمحركات حديثة تمخر عباب الماء بسرعة وانتظام، وهي تتجه صوب المعسكر المستهدف من عدة جهات، فيما أحاطت به قوة كبيرة فيها عشرات الجنود الكوماندوز من فرقة الدبّابين الحكومية العالية التدريب كانت تسبق في وجودها هذه الزوارق فأحكموا حصار المعسكر بسرعة، وكأنهم قد أتمّوا السيطرة عليه، فتعجّلنا المسير إلى الموقع لمّا غلب على ظننا أن القوة الحكومية أتمّت عملية السيطرة، وبينا نحن نقترب من موقع المعسكر تطايرت فوقنا عيارات نارية كثيفة، وقد تخلل أصواتَ النيران أصواتٌ بشرية لم نتبيّنها كأنها تدعونا للوقوف والاستسلام، ثم تبين لنا أنها تقول: «ثابت» بقلب الثاء سيناً وإشباع طويل لكسرة الباء- أي اثبتوا مكانكم على لسان أهل السودان- فما كان منا إلا أن نادينا جميعنا بكلمة السر «سعيد» ثلاث مرات حتى اطمأنّوا لنا، وخرج أحد الضباط مبتسماً مرحّباً وقد قبض بيده على رشاشه، وخرج بعض الجنود من ورائنا وعن أيماننا وعن شمائلنا.

- مرحباً بك أيها النقيب! كنا ننتظر قدومك! نعتذر لإطلاق النار فالوضع لا يزال مرتبكاً، لقد نجحت العملية دون إصابات خطيرة، فقد فاجأناهم واستولينا على الموقع تماماً، وأسرنا ستة من عناصره، لكننا فوجئنا أنه لا يحوي سوى صناديق أسلحة خفيفة، ولم نجد أحداً أو أسلحة غير عادية! يبدو أن معلوماتنا مضروبة هذه المرة أيها النقيب – قال ضابط المعسكر مبتسماً-.

- لا يمكن فمصدر هذه المعلومات موثوق جداً وقد يعني هذا أننا تعرضنا لكمين!! - قال النقيب الضو قلقاً-.

- لا أعـرف بالضبط لكننا سنمكث هنا حتى تأتينا التعليمات باللاسلكي.

- لا أنصحك بالمكوث طويلاً هنا، فالمهمة انتهت ويجب الإسراع في العودة لأجل سلامتكم!.

- التعليمات ستأتي خلال مدة قصيرة فلننتظر قليلاً ثم نتحرك.

تجوّلنا داخل المعسكر وتعرّفنا إلى أفراد القوة الخاصة الذين انشغلوا بتهنئة بعضهم، وهم في مواقع الرصد والحراسة خشية عملية معادية معاكِسة فإذا بأزيز محرك بعيد يقترب بسرعة ويزيد صخبه من ناحية الجو ؛صرخ قائد الحامية ترافقه تمتمات الجنود: إنها طائرة انخفضوا جميعاً؛ وبدأت تهبط على مدرج صغير في مساحة مكشوفة من الغابة على طرف المعسكر.

ساد هـدوءٌ صامتٌ لولا أن شَقَّتْه أوامـرُ هامسة حادة لقائد القوة الخاصة الذي طلب من جنوده الاختباء تحت الأشجاراستعداداً لمحاصرة الطائرة ثم التقدم منها ببطء وحذر.

وفور استقرار الطائرة على الأرض نزل رجلان أسودان فاحمان من الطائرة، ووراءهما رجل أجنبي أشقر، ضارب إلى الحمرة، ضخم الجثة، معتدل الطول، رَبْعة، وهو يضع على رأسه طاقية رعاة البقر الشهيرة كأنه

يتوقّى بها سياط أشعة الشمس، و يلبس بِذْلة «سفاري» رصاصية اللون يتأبّط عصا أبنوسية سوداء، وبين إبهامه وسبابته على مقربة من شفتيه غليون خشبي لا ينفث منه الدخان.

أحاطت بهم القوة الخاصة في سرعة أذهلتهم وأطارت صوابهم، وأدهشَتْهم المفاجأةُ وهم يستمعون إلى أوامر توجّه لهم بالإنجليزية تطلب منهم الاستسلام، وقد سَدّت مدخل الطائرة، ويدخل بضعة جنود إلى الطائرة بسرعة خشية وجود عناصر معادية أخرى فيها.

كل شيء كان يجري سريعاً فقد نزل الجنود من الطائرة الصغيرة مستاقين رجلاً أسود يبدو من لباسه أنه الطيار، وقد خرج مصدوماً مدهوشاً كرفاقه عندما فاجأه دخول هؤلاء الجنود ثم توجيه فوهات البنادق إليه وتفتيشه وسَوْقه بعنف خارج الطائرة وهو يحرك رأسه يميناً وشمالاً من إيقاع الصدمة القوي.

كانت الأفكار تجول في رأسي تتخللها عشرات الأسئلة؟

أيمكن أن يكون هذا هو شتاينر؟ وماذا يفعل في هذا المكان النائي؟ ومن الذي يُنشئ هذه المطارات؟ ومن يرسل هذه الطائرات؟ وماذا يريدون من هذه البقعة الجغرافية في قلب الأدغال....؟ كنتُ أحمل بعض خيوط الإجابات من عملي الصحفي لكنني لم أكن يوماً أمتلك المعلومة الكاملة أو الدليل، ويبدو أنني الآن على موعد مع الحقيقة التي كانت تضيع دائماً في غياب الشاهد والتوثيق!

حاول «الخواجه» الأجنبي التحدثَّ إلى الجنود المتحلّقين من حوله بلغة إنجليزية مكسّرة يقول: إنه من «جماعتهم» وأنه قدِم إلى هنا بناءً على تعليمات تعرفها قيادتهم لنقل أسلحة وصواريخ مضادة للطائرات إليهم، كما أن لديه مهمة أخرى كبيرة يجب أن يكونوا عارفين بها!!، وأنه يستغرب هذه المعاملة الفظّة التي لقيها من حلفائه، وتوعّدهم بعقوبة رادعة... ولم يكتف بهذه العنجهية بل صار يسبّ الجميع بشتائم بذيئة جداً بالإنجليزية والفرنسية ولغات محلية وأخرى لم أتبينها... إلا أنه بدأ بالتلعثم وانكسرت شوكةُ جرأته عندما بدأ يسمع الحديث بالعربية من بعض عناصر القوة الخاصة، وأدرك أن هذا الموقع بات يتبع لغير الجهة التي قدِم إليها، لكن الأوان كان قد فات للهرب، فقد قبضوا عليه مع غربانه الثلاثة وتم تقييدهم من ناحية الظَّهر بحبال متينة، ثم رُبِطوا على جذوع أشجار المانجو في حراسة مشددة.

كان الجميع متلهفاً لمعرفة ما وراء هذا الرجل، لابد أن ثمة قصة مدوّية تختفي في هذه الطائرة ومن أتى عليها! فهل يكون هو ديفيد شتاينر أو رجل يمكنه أن يوصلنا إليه!؟

أما النقيب الضو فقد بدا قلقاً جداً ومضطرباً، وشرع يلحّ على قائد القوة في الانتهاء من تأمين المكان لدراسة الموقف ثم اجتمع إلى قائد القوة وأحد ضباطه، وأحضروني مع الحاج عثمان، وجلسنا تحت شجرة كبيرة بينما كان يقطع جلسته مراراً طالباً من عدد من العناصر أن يتسلقوا

إحدى الأشجار العالية المشرفة على المكان بكامله، وأن تستمر الزوارق في استعدادها لأي طارئ وأن ينصبوا مدافعهم الرشاشة في نقاط حساسة تنتشر من حولنا.

بادَرنا النقيب الضو بالقول:

– لا أظن أن هذا الرجل مغفل حتى يأتي إلى هذا الموقع! لا بُدَّ أن ثمة أمراً ما على غاية من الأهمية دفعه للقدوم!؟.

– التحقيق مع هذه المجموعة كفيل بإيضاح الحقيقة، وينبغي الإسراع في إجراء التحقيق معهم! قال قائد القوة.

– أرى أن نسرع بتسليمهم إلى قيادة المنطقة العسكرية في الجنوب، وهي المسؤولة عن هذه الإجراءات! – قال الضابط المساعد –.

لكن النقيب الضو استبعد فكرة التسليم، وفضّل أن يتأخروا في تبليغ القيادة، خشية تسرب نبأ أَسْرهم عبر التنصّت على أجهزة اللاسلكي القديمة التي بحوزتهم، وأبدى خشيته من فشل عملية التسليم لبعدهم عن مركز القيادة إذ قد تحتاج الرحلة إلى يوم كامل لاسيما أن جزءاً من رحلتهم ستكون راجلة ومعهم هذه الزوارق، وأنه ينبغي التحقيق معهم بسرعة ومعرفة ما وراءهم على الفور، وهو ما توافقوا عليه، وأما أنا والحاج عثمان فقد كنا نهزّ رأسينا بالموافقة إذْ لم تكن لدينا دراية بمثل هذه الإجراءات الأمنية وتكتيكاتها.

كان التحقيق مع «الخواجه» ورفاقه قد بدأ بالفعل، وقبل أن يُتّخذ

القرار، فقد انهمرت أسئلة الجنود الفضوليين على الأجنبي ورفاقه، وقد بدا هذا الأجنبي متوتّراً جداً، أما رفاقه فقد كانوا يرتعدون من الخوف حتى سمعنا نشيجهم وشهيقهم، وما إن شرع قائد القوة الخاصة والنقيب الضو بالتحقيق مع هؤلاء الثلاثة حتى انهارو واعترفوا بسرعة أنهم كينيون وأوغنديون يعملون في مؤسسة إغاثية دولية، وأنه تم التعاقد معهم عبر مرافقٍ إفريقي لهذا الشخص الذي كان يحمل جوازا دولياً، وأغراهم بمكافأة كبيرة، وظهر أن أحدهم طيار وهو الكيني والآخران جنديان مرتزقان من أوغندا المجاورة، وأنهم يعملون مع هذا الشخص منذ سنة على الأقل، وأنهم كانوا يقْدُمون معه كثيرا إلى هذه المناطق النائية، ويتجالسون مع قيادات عسكرية جنوبية، وينقلون لهم السلاح ومعدات التصوير والبث والتجسس وصناديق وبراميل لا يعرفون ماهيتها، واعترفوا بأنهم كانوا يتركون صاحبهم الخواجه الإنجليزي «ديفيد شتاينر» في مرات عديدة، ويأتون لأخذه بعد يومين أو ثلاثة، وأنهم لا يعرفون سوى هذه الأمور.

هو «ديفيد شتاينر» إذن!!

كان هذا الاسم يرنّ بقوة من كثرة ما تقاذفته الألسنة ولَهَجَتْ به هنا، وازدحم ضجيج الأصوات حتى انتهرَنا النقيبُ الضو بعنف فعاد الصمت إلى كرسيّه.

إنه ديفيد شتاينر أخيراً!! لكنه بالتأكيد ليس إنجليزيّاً كما يخبرهم

الآن، فلغته المكسّرة لا تشفع له في زعمه هذا أبداً، كما أن ملامحه الحمراء الفجّة ألمانية أو إسكندنافية. بدا لي أن التحقيق مع هذه الرأس الكبيرة سيكون صعباً وطويلاً بلا ريب، لكنه كان يدرك بالتأكيد أنه أخطأ خطأه القاتل باعترافه الكبير عند نزوله من الطائرة.

كان أثناء التحقيق الأوليّ يتشدد جداً عندما يسألونه عن شخصيته، ويرفض الجواب، ويبدي عدم الاكتراث، أما عندما يسأله المحققون عن أعماله فقد كان يُبدي بعض مرونة، ويجيب إجابات قصيرة غير مترابطة.

وقتها صرخ أحد الجنود:

- هناك شحنة صواريخ داخل الطائرة يا سيدي!!

تلقّف النقيب هذه المعلومة ثم سَلَخ بها شتاينر وهو يصرخ في وجهه: ما مصدرها؟ ولمن سيسلّمها؟ ومقابل ماذا؟

كانت بعض الإجابات موجودة في شحنة الصواريخ ذاتها حيث تجد صواريخ أمريكية وإسرائيلية بحسب ما هو مكتوب على بعض صناديقها.

استأذنتُ أن أدخل هذه الطائرة فلم أجد من يمنعني، وشاهدتُ ذلك بنفسي لكنني وجدتُ أن بعضها بلا منشأ مما يعني أنها إسرائيلية أيضاً فهذه العلامة الفارغة علامة إسرائيلية بامتياز، وأما جهة التسليم فهي واضحة أيضاً لا تقبل الشك أو الجدال أو التحقيق!! لقد تم القبض على الشحنة في «حالة تلبّس كامل» وهي مخصصة للمتمردين بالطبع.

أما المقابل فهو السؤال الكبير الذي لم أجد إجابة كاملة له إلا بذلك

التنظير العام الذي تتلوه علينا إذاعاتنا صباح مساء: إنهم يسعون لتدمير الأمة والتفريق بين مجتمعاتها وشعوبها ويساعدون الخصوم ويحالفون الأعداء ضدنا ووو....

كان شتاينر يتكيف مع هذا الواقع الجديد الصعب فتَصَالَبَ أمام هذا التحقيق، ووجد مخرجاً له بإعلانه عن انتمائه لمنظمة الأمم المتحدة الدولية، وأنه شخصية دولية تُعامَل معاملة الدبلوماسيين، ويجب تسليمه إليها، وعندما يسألونه عما إذا كان يملك ترخيصاً بدخول هذه الأراضي!!؟ يردّ بأن هذا الجواب من اختصاص المنظمة الدولية، وهي المسؤولة عن الإجابة، وأن كل ما هو مطلوب منهم هو الاتصال بمكتب الأمم المتحدة للتأكد من صدق كلامه، وصحة رخصته التي تعرف بها السلطات!!.

لقد كان واضحاً أن مخرجه هو في تسليمه إلى هذه الهيئة الدولية حتى إن أبدت عدم معرفتها بالأمر إذ يكفي أنها أُبلِغت برسالة أَسَره، وستجد الجهةُ التي يتبع لها شتاينر الوسيلةَ لإخراجه بعد ذلك فور وصول هذه المعلومة فلا بد أن تكون هذه الجهة ذات نفوذ كبير حتى في أروقة المنظمة الدولية المخترقة من مخابرات العالم ولاسيما هؤلاء، وهو ما كان يفترضه النقيب الضو أيضاً، وهو صاحب التجربة الاستخبارية الحافلة - كما رأيت -.

أثناء البحث في شحنة الأسلحة كانت الصواريخ هي الشغل الشاغل

للجميع فهي صواريخ قصيرة المدى ومتطورة جداً وذات قدرة تدميرية عالية نظراً لمرونة جدارها المتين من التيتانيوم القابل للتشظي والتفجر، ورأسها الحربية المنتشية بالموت القادم.

- يا الله!! يمكن لهذه الصوايخ أن تقلب المعادلة! فالجيش الحكومي يتفوق جوّاً، وهذه الأسلحة ستضرب هذا التفوق العسكري حتماً، لاسيما أن الطائرات الحكومية قديمة وسهلة الاصطياد بهذه الصواريخ الحديثة.

لكنّ مشهداً آخر كان يشغل بالي!! لقد غفل الجنود المفتّشون داخل الطائرة أول الأمرعن تكدّس عدد من البراميل الصفراء سميكة الجدران ذات المتانة العالية، ولمّا سأل النقيب الضو ديفيد شتاينر ورفاقه عنها قالوا إنها براميل لحفظ الماء!! ولم يجدّدوا السؤال أو يكرّروه عليهم!!؟

كان الجميع من حولي مستغرباً من وجود براميل الماء هذه إذ إن ماء الأنهار العذبة كثير هنا، ولكن قائد القوة صرفهم عن هذا السؤال وقال إن الأجانب لا يشربون إلا الماء النقيّ المصفّى خشية الإصابة بالبلهارسيا أو الغارديا، فاقتنع الجميع بتحليله.

أما أنا فقد أثارني الأمر إذ إن أمثال هؤلاء يعتادون على الظروف الصعبة وعلى العيش في بيئات بالغة القسوة ولا يمكن أن تكون هذه البراميل لحفظ الماء! وحتى لو كان شتاينر هذا موسوساً فلا يلزمه سوى بعض الغلي إذا استراب في تلوّثها، وتردّد في نفسي أنّ سِرّ هذا الرجل يكمن في هذه البراميل، وأن هذه الصواريخ هي جزء من صفقة تشمل

هذه البراميل، إذ ليس هؤلاء ممن سيستقر في هذا المكان فيحتاجوا إلى براميل ماء.

وبقي السؤال يحيرني: ما وراء هذه البراميل؟

طلبتُ من النقيب الضو أن يسمح لي بالمشاركة في التحقيق مع شتاينر فقد تفيد دراستي للإعلام في استنطاق الضيوف، وأسررتُ للنقيب بما أفكّر به، وبات الأمر يثيره كما يثيرني، فأذن لي النقيب بالجلوس إلى شتاينر.

بـدأتُ حديثي إلى شتاينر على طريقة المحققين الإسرائيليين في استجوابنا في المعتقلات قبل أن يزجوا بنا في المعتقلات، وأول ما بدأت به أنْ ألقيتُ عليه التحية «شلوم» مصحوبة بابتسامة صفراء ماكرة فيها وداعةٌ، فبدت على شتاينر علامات الصدمة والدهشة، واستطال وجهه من قبضة مفاجأتي له إلا أنه تماسك ولم يردّ بكلمة واحدة، فخطر لي أنه يعرف هذا الأسلوب، أو أثارته كلمة «شالوم» العبرية، فواصلتُ حديثي معه بالعربية المكسّرة وأطعّم كلماتي ببعض المفردات العبرية التي تعلّمتها من شهور اعتقالي الإداري أيام الانتفاضة فكان يقلب وجهه عني كل مرة أنطق فيها بهذه العبرانية الكريهة.

راقتْ لي هذه الطريقة، كما أنني أدهشتُ النقيبَ الضو وقائدَ القوة اللذين كانا من ورائي ينصتان باهتمام، فادّعيتُ على شتاينر – وأنا أصرخ بغضب بين عينيه – أنه ينتمي للموساد (جهاز المخابرات الخارجية

الإسرائيلي)، وأنني أعلم أنه يقوم بعملية كبيرة في هذا المكان بدليل حضوره الشخصي، وأن هذه البراميل تعني أن عملية خطيرة في الجوار، وأنه ذو حظ سيئ جداً إذ وقع في أيدينا، ومن المستحيل أن يخرج الآن من هذا المكان دون أن يبدي لنا بعض المرونة، ويكشف لنا عن حقيقة مهمته، وأن أمثاله لا يَعترف بهم أحد إذا وقعوا، وأحرى به أن يعترف بطبيعة مهمته مقابل صفقة ما قد تتضمن الإفراج عنه.

كانت تجربتي القصيرة في أقبية التحقيق مفيدة جداً وأحسستُ أنني ألكم شتاينر في أسنانه فيتهَرَّى لحم لِثَاتِه، وينزف دماً كلما عرضتُ عليه عرضاً جديداً للاستسلام، وكانت المَشاهد القديمة تراودني في تلك اللحظة وتصوّر لي ألمي وهم يحققون معي لساعات طويلة يناقِلونني بين محقّق وآخر وأنا جالس على كرسي قصير القوائم، لا يتسع لعجيزة صبيٍّ صغير، وقد منعَنا هؤلاء من النوم والاغتسال والصلاة وهم يبتسمون لنا ابتسامة الحريص تارةً، و يُبدون لنا وِدادهم، كأنهم أصدقاء ناصحون، ثم لا تلبث أن تنتابهم نوبات غضب ثقيلة ترمينا على ظهورنا فنستغل تلك اللحظة فنلقي برؤوسنا على جوانبها إلى الأرض لعل سِنَةَ نومٍ عابرة تدركنا فنغفو لحظات.

لم يكن شتاينر يبدي أية مبالاة بما أقوله بعد أن استوعب الصدمة الأولى، بل امتنع عن النظر إليّ منذ صَدْمتِه الأولى بـ «شلوم»، وكان يهوّم برأسه في أنحاء المكان، ثم جَمَعَ أشلاءَ شجاعته المتداعية وصرخ في وجهي

طالباً أن أكفّ عن هذا العبث ولعب الأولاد، وأن يتصل هؤلاء العساكر من حولي بقيادة الجيش لننتهي من الأمر، ويتم تسليمه إلى الأمم المتحدة ومحاسبته من خلالها، وأن هذا هو آخر كلام لديه.

عند ذلك أدركنا جميعاً أننا أمام محترفٍ حقيقي، وأن جولات التحقيق معه في هذا المعسكر غير الآمن ستطول بلا فائدة.

عند ذلك جاءت تعليمات مشفّرة للقوة الخاصة عبر اللاسلكي المحمول بأن تتراجع نحو الجنوب لتنضم إلى كتيبة عاملة قريبة، وطلبوا إليها الحركة فوراً، واللقاء خلال عشر ساعات في المكان المحدّد، ولم يكن لدى قيادة المنطقة العسكرية معلومات سوى أن المهمة العسكرية أُنجزت بنجاح دون خسائر.

- ولكن هل نترك الطائرة هنا؟ وماذا سنفعل بالخواجه ورفاقه؟ قال قائد القوة.

- أرى أن نطلب طياراً يقود الطائرة، وأن يوافيكم في منطقة قريبة من أكواخ الحاج عثمان، فهي أكثر أمناً، وأن تُبقوا معنا بعضاً من الجنود ليرافقنا مع شتاينر ورفاقه الثلاثة، وتبقى الطائرة هنا حتى يأتي الطيار فيقلع بها مع الأسرى والقوة. قال النقيب الضو ليجد لنا الحل السريع لهذا الوضع العاجل.

- ولكن ماذا نفعل بالشحنة؟

- أرى أن تدفنوها أو تخفوها بين الأشجار ثم تأخذوها معكم عندما

يأتي الطيار.

- هذا رأي جيد!! فلنقم بإخفائها يا شباب بسرعة بين تلك الأشجار البعيدة عن النهر.

- لا تنسوا ألا يتسرب أي شيء يتعلق بشتاينر عبر اللاسلكي وسنقوم بتقديم تقرير مفصل للقيادة في أقرب مركز اتصال مباشر وآمن.

توجه النقيب الضو وأنا والحاج عثمان والأسرى والجنود المختارون للحراسة والمرافقة باتجاه أكواخ الحاج عثمان، بينما كانت القوة الخاصة تستعد للمغادرة باتجاه الجنوب فور انتهائها من إخفاء شحنة الصواريخ في مكان يبعد قليلاً عن المعسكر، ولم يكن هناك مجال للحفر والدفن أو الحمل لئلا تتأخر القوة عن مهمتها الجديدة.

لقد كنتُ سعيداً للتعرف إلى هذه المجموعة وقائدها الشجاع وكم تمنيتُ لو كانت الكاميرا معي لأصوّر هذه الأحداث الشائقة وأوثقها، فلا شك أنها ستكون ذات حضور إعلامي مميز وسينال عملي الكثير من التقدير والاشتهار بفضلها، ولكن كان عليّ أن أجدِّد تذكير نفسي بأنني كنتُ ميتاً وعليّ أن أقنَعَ وأرضى بما أنا فيه من تجدُّد النعمة عليّ بالحياة.

كانت رحلة العودة إلى أكواخ الحاج عثمان بوجود هذا العدد الكبير أكثر خوفاً وحذراً، ولاسيما مع وجود هذا الشخص معنا فقد كان نَزِقاً

مزعجاً كريهاً تجده كثيراً ما يُطلق صرخات مدوّية في أحشاء الطريق لينبّه علينا مَن يمكن أن يكون من حولنا، لذلك كان يضطر الجنودُ إلى ضربه وانتهارِه بشدة، فإذا توقف عن الصياح بدأ يلحّ في طلب قضاء الحاجة، ثم يتبوّل على نفسه، وتارةً يدعي أنه جائع، أو أنه مرهق لا تحمله رجلاه الجالسة على أرضية الزورق!!، أو أنه مريض بالربو، وتارة بالسكر، وتارة بالقلب، وحشد لنا فيه كلّ عِلل الدنيا وكأنه كان يحتاج إلى مستشفى فيه كل التخصصات لتعالج علله المزعومة، فطالت الرحلة بسببه ضِعفَ ما هي عليه، وكان يزداد شراسةً كلما مضى بنا الوقت، فبدا لنا حينها أنه يعرف هذه الأماكن من قبل!.

اقترح الحاج عثمان أن نخيّم بعيداً عن أكواخه في قوطية قديمة منعزلة كان ينزل بها إذا أوغل في الغابة، ودخل عليه الليلُ وهو بعيدٌ عن أكواخه، وبرّر ذلك بألا ينتشر خبر هذا الأسير الخطير، ولاسيما أنه من الممكن أن يكون في منزله بعض من أقارب زوجاته الذين يترددون عليه بين الحين والآخر ولاسيما إذا كان مسافراً أو غائباً، وأبدى استعداده وحرصه أن يأتينا بما يلزم من طعام وحبال وأي شيء نحتاجه، فوافقْنا جميعاً على اقتراحه لاسيما أن هذا المكان بات قريباً جداً منا.

في الطريق كنتُ أستغلّ استراحاته القصيرة وأختلس أسئلة مرحةً للنقيب الضو:

- لماذا لا تعود إلى شخصية الساحر أيها النقيب؟

– لم يعد لذلك لـزوم فقد حصلنا على الفريسة وانتهت مهمتي وانكشفت شخصيتي لعدد كبير من الجنود وأهالي المنطقة، وعليّ الآن تسليم هذا الرجل لقيادة المنطقة، وقد أجد بعض الراحة بعد ذلك عند أهلي الذين لا يكادون يعرفون عني شيئاً في السنوات الأخيرة.

– كانت هذه الشخصية ملائمة لك جداً!

– نعم فوالدي تاجر حبوب كان ينقل البضائع في سفن النيل إلى الجنوب والوسط، وله صداقات واسعة في هذه الولايات، كما أنه كان قبل ذلك ضابطاً إدارياً في الإدارة المحلية للإنجليز، وطاف معهم معظم الأقاليم والولايات وهو عارفٌ بعاداتها ورطانتها وألوانها، وكان كثيراً ما يحدّثنا عن مشاهداته ومغامراته وحكايات هذه البقاع.

– أنت من قبيلة عربية إذن لكن لونك الأزرق يقول إنك من القبائل النيلية!

– أبي له ثلاث زوجات وزوجته الأولى «أمّي» من منطقة «فشودة» في أعالي النيل، وأنا شديد الشبه بها، ثم انتقلنا إلى «الدِّنْدِر» تلك المحمية الطبيعية الضخمة على ضفاف النيل الأزرق حيث ينتمي والدي.

– لذلك تحسن لغات محلية عديدة؟

– نعم أحسن على الأقل العربية ورطانة النوبة ورطانة الأنقسنا والشُّلُك و ورطانات محلية لا أعرف ماذا تسمى!.

استقر بنا المقام في هذه القوطية الكبيرة، بينما ارتبط الأسرى

الأربعة في جذع شجرة تنتصب داخل القوطية، والحراس من حولهم متأهبون مستعدون لأي طارئ يذخّرون أسلحتهم ويتفقدونها، وكأن هذه القطع تسليتهم الوحيدة وهم متسمّرون حول شتاينر ورفاقه، حتى إنهم من شدة حذرهم لا يفكون وثاق هؤلاء عند أكلهم أو حتى قضاء حاجتهم، وعندما أختلي بنفسي تهيج بي ذكرى أهلي وموطني وتلحّ عليّ نفسي ثانية وأمنّي هذه النفس بأحلام العودة والرجوع، فكأنها فطرةٌ في قلوبنا منذ نكبة أهلنا أن نظل نحلم بالعودة ونداعب خيالاتها ؛ وأستلقي على ظهري أنظر في بدر السماء المحتجب من وراء الأغصان أنتظر بلهفة مجيء الطيار لينقلني إلى عتبة العودة الثانية.

ثلاثة أيام مرت دون أن يحضر هذا الطيار المنتظَر، ونحن محشورون في هذه القوطية الكبيرة وقلّما نخرج منها أو نتحرك، ولا توجد وسيلة اتصالات أو تسلية في هذه الأدغال الموحشة المظلمة، ولم يكن هناك الكثير مما يجمعني مع الجنود، ولم أجد ما أشاركهم به الحديث، وكانت تسليتي في الحديث مع النقيب الضو الذي بات كثير التضجّر والانزعاج من حديثي وإلحاحي في السؤال عن الطيار وميعاد العودة فكنت أنتظر الحاج عثمان الذي يطلّ علينا طلات قليلة، يَجتلِب فيها وجبات من اللحوم المشوية من الغزلان والتيتل وأسماك القرقور والعِجل والبلطي النيلي التي يصطادها بشباكه العتيقة، ويطبخها في أكواخه ثم يحملها في زورقه إلينا، ولم يتحفنا بوجبة تماسيح كتلك التي أكلناها معاً لأنها وليمة

كبرى نقدمها للأحباب إذا كان عددهم قليلاً فقط - كما يقول ضاحكاً-.

وكنتُ أتسلّى أحياناً بالنظر في مناكفات طيور الغرانيق البيضاء الزاهية ببعض الألوان الصفراء الباهتة على شاطئ الماء، ثم تنقيرها في أوحال ضفاف النهر بحثاً عن ديدان أو أسماك صغيرة تقترب من عتبة الماء، و تدافعها مع طيور أبي سعن الأبيض وأبي سعن الأسود ذي المنقار الطويل القبيح، وهي الطيور التي كانت تطير بصخبٍ كلما صاح شتاينر على طريقته المزعجة.

كانت تلك الليالي من أقسى ما عانيته فقد كانت مترافقة مع امتلاء البدر في كبد السماء، وانتشار ضيائه المبهر، فتهجم عليك أسراب بعوض صغيرة متوحشة تملأ الأذنين بطنينها المجنون، وتظلل رأسك، وتحجب عنك أضواء البدر المنفوخ السمين، ثم تغزو جلدك الضاحي المكشوف وتنهشه نهشاً بلا رحمة، أو تهجم على عينيك لتمتصّ رحيقها ورطوبتها فتحمرّان وتصيران كعيني الذئب المذبوح، كنتُ أطحنها طحناً بلا رحمة أيضاً، أفركها بين يديّ، وأصفعها صفعاً من جانبيها بكلتا يديّ، فلا تلبث أن تأتيني غيرها، تنبعث من أجسادها المحطّمة، وأضلاعها الذائبة رائحة دماء البشر والحيوانات التي نهشتها ، كنتُ أقاتل فلولها المنهزمة وجيوشها المتقدمة معاً، ويشاركني رفاقي القتال دون إحراز النصر المنشود، وكانت خسائرنا كبيرة بتلك التشوهات التي غدت كالحروق الحمراء في أبشارنا المكشوفة، فعرفتُ حين ذاك لِمَ سمّت العرب هذا

البعوض بالهَمَج، ولِمَ شُبّه رُذّال الناس ورعاعهم بها.

وصبّ الهمج الغاضب بالغ وحشيته على «شتاينر» المقيّد وكان وليمةً سهلة شفت غليلنا منه، لكنها لم تخلّصنا من صراخه وتَلوّيه.

في اليوم الرابع أقبل علينا الحاج عثمان باسِمَ الوجه متهللاً ومعه ثلاثة أشخاص فعرفت على الفور أن من بينهم طيارنا المنتظر فرحبنا به بشدة وكأنه محبوبٌ هجَرَنا من غير وداعٍ فاستبدّ بنا الاشتياق له، أما شتاينر فقد كان ينظر إليه نظرة الغضبان الحاقد الذي يعلم أن ثمة نهاية مشؤومة قد يوصله إليها هذا الطيار، وكان قبلها لم يكن يتواصل أو يتحدث مع أحد حتى مع رفاقه الذين استسلموا لحالهم، فكان جلّ اهتمامهم في مواعيد حضور الطعام والاختلاء لقضاء الحاجة مع حراسهم الذين لا يصرفهم حياؤهم عن مراقبتهم شَزْراً خشية وقوع ما يكرهون، وكنت أرى أن شتاينر سينفجر من الشعور بالغيظ والوحدة، فأنا أعرف أن أمثال هؤلاء المغامرين المغرورين يموتون كمداً إذا اجتاحهم الشعور بالهزيمة.

اقترح النقيب الضو أن يتجه الطيار ومرافقوه وخمسة جنود بصحبة الحاج عثمان إلى الموقع العسكري لجلب الطائرة لأنه من الخطورة نقل شتاينر مرة أخرى، وهو بهذه الحال لاسيما أنه من الممكن إنشاء مطار صغير عند المنطقة الطينية المتحجرة الواسعة التي يخلفها فيضان النيل بعد انحساره وجفافِ أرضيته ويبسها، فلقي الاقتراح ترحيب الجنود

وباشروا بالإعداد للرحلة، وأوصاهم بالحذر وتفقُّد الموقع من جهاته كلها، والتسلل بحرص وعدم الاستعجال حتى لو تطلّب ذلك أياماً.

ولم يفت الحاج عثمان أن يذكّرنا بأن علينا الاعتماد على أنفسنا في الطعام والشراب خلال مدة غيابه، ثم بدا له أن يقترح علينا أن تحضر لنا زوجتاه وأبناؤه الطعام، فأبى النقيب ذلك خشية تسرب الخبر، وطمأنه بشأن الطعام والشراب فالأدغال مليئة بالخير وهو خبير بالمنطقة أيضاً.

لم ينقضِ وقت طويل - بضع ساعات - قبل أن يعود الفريق الصغير من ناحية الموقع، فقد تبين لهم أن الموقع عاد إلى سيطرة المتمردين، وهناك كتيبة كبيرة ترابط بالمكان ولديها مدافع رشاشة متقدمة وسريعة، ولم يجد الفريق في المدى البصري المتاح لهم تلك الطائرة الرابضة هناك، ومن الواضح أنهم طاروا بها إلى موضع أكثر أمناً، وهم يبحثون الآن عن شتاينر ورفاقه.

كنا قلقين جداً ونشعر أن الأمور قد تجري لغير صالحنا في هذه الأدغال المتمردة السوداء، بينما كان النقيب الضو يتحدث باضطراب واضح عن خطورة الوضع وضرورة التحرك باتجاه الشمال الشرقي حيث المناطق أكثر أمناً، محذّراً أننا سنمر بالعديد من المناطق المتمردة التي يمكن تجاوزها بالالتفاف عليها، وكاشَفَنا أنه يغلب على ظنه أن المتمردين يعتقدون أن إحدى المجموعات القبلية المتمردة المنافسة هي من قام باختطاف شتاينر بغرض المقايضة، ومن الجيد أننا أخفينا السلاح.

لكن الحاج عثمان لم تعجبه هذه الفكرة واقترح أن نتحرك في إحدى العبارات «البانطونات» النهرية الضخمة وأوضح لنا:

- إن البانطونات أفضل وسيلة للخروج من هذه المنطقة، وهي في هذا الموسم تكون بطيئة وتتأخر في مواعيدها حيث تعاني من انحسار مياه النيل وضيق مجاريها قبيل موسم الفيضان، وأصحابها عرب لا علاقة لهم بالمتمردين وسيستجيبون لطلبنا عندما يعلمون بأن هذه المجموعة من الجيش، ولكنهم قد يزهدون فينا ويرفضون إذا لم نقدم لهم أجراً مناسباً، أما الطريق إلى الشمال الشرقي فطويلة وكثيرة المتاهات ولا يكاد يضبطها أحد وأخشى أن نتيه أو نقع في دورية مفاجئة!.

- لكن الطريق النهرية مليئة بحركة المتمردين على الضفاف وهناك عيون لهم من أهل المنطقة! قال أحد الجنود الخبيرين بالمنطقة.

- نعم سكان هذه المنطقة هم مادّة المتمردين- قال جندي آخر-.

- أماكن وجود المتمردين باتت معروفة تقريباً، وهي متباعدة جداً عن بعضها، كما أن الناس في تلك المناطق من قبائل مختلفة، بعضهم حلفاء لقبيلة الدينكا أكبر قبائل المنطقة هنا وبعضهم أعداء، وسنجد بعض حلفاء الحكومة ويمكننا الاختفاء بينهم، أو في المناطق التي لا يوجد فيها أحد أثناء الطريق الطويلة، والمهم ألا نكون ظاهرين. - قال أحد الجنود من ذوي الرتب -

- جميع البانطونات تحظى بحماية مشددة ويهتم بها الأهالي

ويعتبرونها وسيلة حيوية لنقل الغذاء والحبوب لسكان الجنوب مما يعطيها بعض الحماية والاحترام، والمهم أن نختفي تماماً في جوفها ولا ينبغي بحال أن نظهر أننا فيها - قال النقيب الضو-.

- أقترح على النقيب أن يعود إلى هيئة الساحر «الكجور» فقد آن الأوان لهذه الشخصية أن تساعدنا في هذه الطريق، قلتُ للنقيب.

- «الكجور» لا يتحرك مع الناس بل يكون متوحّداً غريباً يأتيه الناس، هذه خطة مكشوفة! - قال النقيب مبتسماً-.

وفي نهاية المشاورة تم اعتماد خطة مزدوجة مرنة قابلة للتغيير كما يحلو لي أن أصفها: التحرك عبر البانطون والنزول إلى البر والاختفاء مدة من الوقت حتى يجيء بانطون آخر فنركبه.

حينها اغرورقت عينا الحاج عثمان بالدمع لكنهما لم تفيضا، ثم ما لبثتا أن جففتهما حرارة الهواء، فأدركتُ أن الحاج عثمان يشعر بمرارة الفراق، فقد عشنا معاً شهوراً حيّة حنون من عمر زمانه المختبئ، ألِفَنا وألِفْناه، وأحبّنا وأحببناه، وسيعود إلى عائلته في مكانه البعيد ليمارس حياته التي أحبّها بهدوئها الممل، ثم ودع الجميع بصمتٍ دون كلمات تضيف مشاعر ثقيلة في هذا الموقف المضطرب الصعب الذي نعيشه، فعلمتُ أن هذا الرجل ذو أصل وشهامة وكرم نفس، ورافقنا لساعات في طريق عودته ثم انحرف عنها ليوصلنا لأولى المحطات التي قد تتوقف

فيها البانطونات الكبيرة.

❖ ❖ ❖ ❖

كانت المحطة النهرية القديمة جُرْفاً على شاطئ النيل يصل إليها الراكب عبر قطعة خشبية قديمة طويلة وسميكة مركوزة على هياكل حديدية قديمة لعبَّارات نهرية غارقة، وتوجد على جوانب المحطة بيوت طينية وقوطيات شبه مهجورة وكأنها لا تحيا إلا بحياة السفن العابرة بها، وكان ثمّة عمّال يتأهّبون للارتحال، ويتسامرون مع بعضهم أثناء ترحُّلهم فرحين ببعض الربح الذي اجتنوه من عتالتهم وحملهم للبضائع إلى الزوارق الصغيرة القادمة من النواحي القريبة أو إلى سفن أكبر حجماً لتجار من المنطقة، و كلهم يسعى إلى أخذ أكبر كمية من البضائع على قدر ما عنده من مال أو ماشية يقايض بها، وكل ما حصل عليه أولئك العمال المساكين كان أكياساً صغيرة من الدقيق وأكياساً من الزيت لا أدري كيف سيتحركون بها دون أن تنخرق في هذه الغابات.

لقد تهيّأ لنا الحظّ الأسعدُ بأنْ كانت سفينةُ البضائع (البانطون) هذه وجدناها تتوقف في المحطة تختلط فيها الهياكل والأعمدة الحديدية والخشبية وبدت شبه فارغة إذ قد انتهت من تفريغ حمولتها من الذرة والسمسم والزيوت وقطع غيار السيارات والشاحنات والمولدات الكهربائية في المحطات الجنوبية التي مرت بها، وعادت لتحميل المزيد قبيل موسم

الخريف التالي حيث الأمطار الشديدة التي يعقبها فيضان النيل.

تحركتُ أنا والنقيب الضو صوب البانطون لنفاوض ربّانها، وكانت ابتسامته التي أضفت عليها هيبتُه العسكرية طابعَها الجـدِّيّ ووجود شخص أبيض البشرة معه مدخلاً سريعاً لاستقبالنا بحفاوة واحترام إذ قد نكون تجاراً كباراً نريد الاتفاق معهم على صفقة مربحة أو قد نكون مندوبين لجهة إغاثية تستأجر منه هذا البانطون لأغراض نقل المساعدات فيحصل على أجر كبير بالعملة الصعبة، وشعرتُ حينها أنني أقوم بأولى خدماتي الحقيقة في هذه الرحلة، إلا إن كانوا يظنونني مرتزقاً دولياً ينتظره الصيادون.

لم يترك لي النقيب فرصة للمناورة وإقناع القبطان النوبيّ الحَلفاوي المبتهج بصيده بجدوى التعاون معنا فقد كشف عن رتبته العسكرية وأنه قائد المنطقة العسكرية، وأنّ الأوامـر قد وصلته بالاستيلاء على هذا البانطون واستخدامه في مهمة نقل عسكرية خاصة بالجيش السوداني، فتجهّم الرجل وتمعّرت تقاسيم وجهه وتلبّدت، وتحرك لسانه بكلمات هامسة بدت لي كأنها شتائم ثقيلة، وبادر فوراً إلى الرفض:

– هذا البانطون لا يصلح لنقل المعدّات أو حمل الجنود، هذا بانطون مدني!!

– ليست هذه مهمتنا، هناك أوامـر عاجلة وليس لك حق الرفض، مفهوم!!

- وتجارتي وسفينتي ومصالحي!!؟

- القيادة ستعوضك عن أية أضرار!

- أبعدني عن الحكومة يا جناب الضابط، ودعني في حالي، فالحكومة لم تعوّض أحداً يوماً!!.

- انتهى الأمر، لا مجال للجدال.

- حسبي الله عليكم!! حسبي الله - قالها بغمغمة كأنه غريق تحت الماء -.

كنتُ أشعر أن هذه المفاوضة العسكرية ليس هذا محلها، وأن هذا القبطان المستاء قد ينقلب علينا ويؤذينا إذا كان لا يشعر بالرضا، فتدخّلتُ بين نظرات الرجلين الغاضبتين، وغمزتُ بعيني للنقيب الضو ليوافقني الرأي فيما سأقوله:

- لكنك ستستفيد أيها الكابتن وأنا أضمن لك هذه الاستفادة.

- توجّهت نظرات الكابتن إليّ وقد انفرجت قَسَماته قليلاً متسائلاً عن هذا العرض.

- سنعطيك ما تأخذه من أجرٍ، نريد البانطون كاملاً.

- ولكن هناك بضاعة أريد أن أحمّلها في الطريق!.

تدخّل النقيب بغضبٍ:

- إما أن تقبل بهذا العرض، وإما أن نصادر خردتك هذه رغماً عنك!!

لم يكن أمام القبطان إلا أن يقبل فهذا العرض أفضل له من أن يستولي

الجيش على سفينته، فقد حصل هذا من قبل معه، وأمضى وقتاً طويلاً قبل أن يسترد سفينته ومهنته، وليس هناك ما يمنع من تكرار حدوثه، فالبلاد في حالة حرب، وكل القوانين يمكن انتهاكها باسم حالة الطوارئ المعلنة!.

ركب جميعنا في هذه السفينة النهرية الضخمة، وحرص النقيب أن نجد مكاناً مغطّى بالكامل في جوف السفينة وله أكثر من باب، واتفقت مع قبطان السفينة على الأجر قبل أن يتحرك بنا ثم يتعذّر بأعذار أهل البحر الذين لا يملّون من الشكوى فيرفعون أجورهم أضعافاً مضاعفة متقوّياً عليه بمنطق النقيب العسكري، وملوّحاً له بالخيار الآخر إذا فشِلتْ مفاوضاتي معه، وبما أنني لم أكن أعرف الأجر المتعارف عليه في هذه الحالات فقد تركتُ الأمر على اتفاق عائم إذ لا أضمن أيضاً أن يدفع له أحد شيئاً.

وتدخّل النقيب ثانية:

– سنتوجه إلى مدينة كوستي في ولاية النيل الأبيض، وعليك أن تعرف أننا لن نقوم بتحميل أي أشخاص أو بضائع، ولن نقف في الطريق على أي محطة.

لم تكن تلك هي الخطة التي اتفقنا عليها قبل ساعات فقد بدا للنقيب الضو رأي آخر ولم يكلّف نفسه عناء شرح هذا التغيير لنا، ويبدو أنه يعتبر ذلك من جملة خصوصياته وصلاحياته، فهو عسكري خبير وهم فرديّون

بطبعهم ذوو جرأة، ويؤمنون بحَدْسهم الأمني، لذلك آثرنا الصمت إذ هو القائد هنا.

سرعان ما انتشر نبأ هذا الاتفاق بين عمال السفينة، والفضل يعود إلى الجنود الثرثارين الذين لا يكفون عن نقل المعلومات والحديث بها في أثناء فطورهم أو احتساء الجبَنة والشاي أو (الَونَسة) مع طاقم السفينة، وهو الأمر الذي أزعج النقيب كثيراً فهؤلاء العمال ينتمي بعضهم إلى بلدان إفريقية متاخمة وبعضهم من قبائل عدة داخل السودان، ولهم ولاءات اجتماعية وطائفية مختلفة بين خَتْميّة وأنصار وصوفية ووثنيين ومسيحيين كاثوليك وعديد منهم بلا ديانة ينتسب لها، ولا يضمن أحد أن يكون أحدهم تابعاً لهذه الجهة أو تلك، وهو ما جعل النقيب المتوتر الغاضب يأمر بتشديد الحراسة على شتاينر، ويمنع النومَ، واتّخذ إجراءات تبادل صارمة ومنع دخول العمال إلى المنطقة الحمراء كما سمّاها، وهو ما أزعج القبطان وعمّاله، وتدخّل القبطان بقوة ليمنع هذا التصرف، لكن النقيب طلب منه بصرامة أن يستمر في رحلته، وألا يكثر السؤال، وأنه الآن في مهمة عسكرية خطيرة، وعليه أن يتعامل معها بجدّية كبيرة، وأن ينسى أنه في سفينته أو أنه قائدها،وإلا فإنه سيضطر للاستيلاء على السفينة وإدارتها بطريقته، كما شرح له مراراً، فيزداد القبطان غيظاً.

كان القبطان يتعاظم شعوره بالإهانة، وكانت عينه تقدح بالشرر، لولا تدخّلي المستمر وتدخّل أحد الجنود الحلفاويين من قبيلته، فلانَ لصاحبه

وتلطّف له، حتى أظهر بعض الرضا، إلا أنه ألمح بغضبٍ أيضاً أن النقيب لن يكون سعيداً إذا اضطر القبطان لاستخراج سلاحه فهو مقاتل أيضاً وابنُ معارك، ولم يكن لمثله أن يستمر في هذه المهنة الخطرة في هذه الأدغال لولا شجاعته وخبرته التي لا ينبغي للنقيب أو غيره أن يستهين بها!!.

لكنه رأى في نهاية الأمر أن يكون متعاوناً معنا حتى انتهاء هذه المهمة التي بات يدرك خطورتها وتورّطه فيها دون أن يعرف سبباً لإدراكه هذا سوى جدّيّة النقيب وحزمه، ووجّه القبطان الغاضب الأوامر لعمّاله بامتعاضٍ وتأفف بأن يظلوا على سطح السفينة، وألا ينزلوا إلا للضرورة، باستثناء الميكانيكي الخبير بأحوال محرك البانطون الضخم الذي كان يطلق شخيره المزعج منذ بداية الرحلة دون توقف.

أمر النقيب جنوده أن يلبسوا «العَرَّاقي» وهو لباس محلي أبيض يشبه الجلباب يلبسونه في العادة داخل بيوتهم، وأن يستعيروه من العمال ليظهروا كأنهم منهم لكيلا يثيروا الشبهات، وهو ما أدخلَنا مجدداً في غضب العمال هذه المرة وغضبِ قائدِهم الذي كان يضرب السطح بقدمه، ويبدي تذمُّره الشديد، ولم يسكن غضبهم حتى وعدتُهم بأنني سأشتري لهم جلابيب جديدة فور نزولنا إلى البر، فقَنِعوا باسمين، بينما كنتُ أتخبّط أنا في معرفة كيف سأفي بوعودي لهؤلاء المساكين!!.

انتشر بعض الجنود بلباس العمّال المتّسخ على سطح السفينة، فنصب اثنان منهم «الدوشكا» في مقدمتها، وغطّوها ببعض الشوالات البنية

الفارغة بين بعض أكوام الفحم، وتركوا لها مجالاً دائرياً بين الشوالات يتيح لها رشّ لظاها إذا احتدم الأمر، و حمل ثلاثة آخرون أسلحتهم الخفيفة وانتشروا في أنحاء السفينة في مقدمتها ووسطها ومؤخرتها، وظلت البقية مختفية تحت السطح لحراسة المنطقة الحمراء، بينما كان النقيب الضو يتردد بين سطح السفينة وجوفها، وقد بدا عليه الإعياء والتوتر واحمرّت عيناه، وكأن الدم يتفجر في شعيراتها الدقيقة من قلة النوم وعِظم الهم.

كانت السفينة تتباطأ أحياناً في سباحتها فيضطرب النقيب ويصرخ بحزم وغضب ألا يقف أحد على أيّ محطة، لكن القبطان كان يخشى من انهيار قدرة المحرك على العمل المتواصل وهو المحرك القديم المتهالك.

كانت الأمور تزداد توتراً والانفجار على وشك أن يبدأ داخل السفينة، وقد ينفضح أمرنا ويضيع صيدنا، بسبب هذا التوتر وسوء المعاملة، فالنقيب ينطلق على سجيته في توجيه أوامره، ولم يفطن أن هؤلاء مدنيون وليسوا من عساكره وجنوده، كما كنتُ أوافق على وجهة نظر القبطان بأن عدم وقوفهم سيثير شكوك مَن هم على الشاطئ في ضفتي النهر ممن ينتظر عبور البانطون للانتفاع ببيعهم بعض منتوجاتهم المحلية أو إسقائهم أكواباً من الشاي أو فناجين «الجَبَنة» ببضعة جنيهات.

لذلك حاولتُ ثانية أن أمارس دور الحكيم، فقاطعني النقيب قبل أن أتمّ حمل وجهة نظر القبطان له:

- معظم هؤلاء لا يحملون أجهزة اتصال متقدمة وستكون السفينة أسرع من أي تبليغ يمكن أن يقوموا به لصالح قيادتهم، ولكنني لا أستطيع تجاهل وضع المحرك لذلك سأسمح بالوقوف على أقرب محطة شرط أن نتحرك فور أن يبرد المحرك.

وبالفعل فقد أشرفْنا على المحطة التالية، وقام الجنود بإخفاء الدوشكا، وصعد النقيب إلى السطح يراقب الوضع بقلق، وقد أمر بتكميم شتاينر ومنعه من إصدار أي صوت، بينما كان الناس على الضِّفَّة يلوّحون ويصرخون فرحاً بوصول البانطون.

كنتُ أشعر ببعض الراحة في هذه المسيرة الهادئة فهذه بداية طريق العودة وقد ولّت الأخطار الكبيرة وراءنا، ولا نظن إلا أننا أمام مشكلات صغيرة فهكذا حال المصيبة تكون كبيرة ثم لا تلبث أن تصغر.

كان القبطان في حالة هياج وغضب، يصدر أوامره إلى عماله بالصراخ والشتم، وكان البانطون يتباطأ ويتيامن بنا نحو المحطة القريبة، وقد لاحت لنا بكل مرافقها: لا شيء سوى الناس يقفون عند هَدْمٍ رمليّ يحتشدون حوله ومعهم العربات التي تجرها الحمير، فيهم الشباب والنساء والأطفال والعجائز، بعضهم سبح لنا بفرحٍ كبير ووصل بعضهم إلى السفينة يحاول الصعود إليها، فتوتر النقيب توتراً ظاهراً جداً، وصرخ بألا يسمحوا بارتقاء أحد إلى البانطون، فيرد عليه القبطان الغاضب:

– ومن قال لك إنني سأسمح لهم!!؟ معظم هؤلاء لصوص وقد تعوّدنا عليهم!.

لذلك كان العمّال يطردون هؤلاء المتطفّلين السابحين ويرمونهم ببقايا الحطب الصغيرة، دون أن يصدر لهم الأمر فقد اعتادوا على مثل هذا السلوك من عملهم الطويل وخبرتهم بأوامر قبطانهم.

ها قد بدأنا بالرسوّ أخيراً، وقفز العمال واحداً تلو الآخر إلى الماء يجرّون أقدامهم جرّاً في الطين الكثيف الرطب، وكأني بهم يتجهون صوب بائعة الزلابية المُنحشِرة وسط الجموع وهي تضع نارها ومِقْلاتها العريضة تقلي العجين المتخمِّر المدوّر كأنه العوّامة في بلادنا إلا أنه أكبر حجماً يرشُّون عليه السكر المطحون، وبجوارها بائعات الشاي والجبنة والزنجبيل.

ترك معظم العمال السفينة قبل أن ترسو رسوّها الأخير، فهم يريدون إدراك ما ينتظرهم على الشاطئ قبل حلول الظلام، فهذه الفرصة قد لا تتاح لهم ثانيةً مع وجود تلك الحمولة الأجنبية على ظهر السفينة، وكان القبطان يلاحقهم بسبّه وشتمه لهم ويأمرهم بالعودة لإتمام عملهم قبل النزول لكن أحداً لا يجيبه سوى فتيين صغيرين يخشيان جداً من سيدهما الغاضب.

فكرتُ حينها أن واحداً من هؤلاء العمال الثرثارين قد يتكلم بكلمة لا يلقي لها بالاً تكون وبالاً علينا وتكشف ما لدينا هنا، وقررتُ أن أُكاشِف

النقيب بخاطرتي لعله يتنبّه للخطر، وفي طريقي إليه مالت بنا السفينة ميلاً شديداً ألقت بي إلى الناحية الأخرى وأطاحت بما حولي من براميل وأكياس وشوالات وأدوات، وكشفت عن الدوشكا المخفية بسقوط ما حولها، فاضطرب الجميع، وصوّب الناس في الشاطئ النظر إلى السفينة بصياحٍ وجلبةٍ ولغوٍ لم أفقه منه شيئاً.

لقد توقفت السفينة تماماً على مَيلٍ حادٍّ قبل أن تصل إلى مكان رسوّها، يبدو أننا انحشرنا في الطين، هل هذا ممكن؟

كانت الظلمة تحلّ بسرعة، وكأننا مع المصائب على ميعاد، والكل من حولي متوتر وغاضب، القبطان يسبّ جميع عماله كلاً باسمه، ويخص عامل الدفّة في الأعلى، ويتهمه بأنه انشغل بالنظر إلى الفتيات عن أداء عمله فغاص في الطين، إنه رجل «كَعْب» كما يقول القبطان الهائج، أي الوضيع الساقط في رطانته، وأما النقيب الضو فقد اختفى من أعلى السفينة، واخترقتني الوساوس والأفكار هاجمةً بعنفها الذي لا يقاوَم: هل سقط في النهر؟ أم قفز ناحية الشاطئ؟ أم...؟ استولى عليّ القلق، واشتملتني الحيرة، فليس هذا ميقات مناسب لاختفائه!!، وتسمَّرتُ مكاني مُستسلِماً لهذه اللحظة الكئيبة المظلمة. أضاءت لحظتي تلك بوَسْوساتٍ مريحة أطافت بي، ولم أدرِ سبب طروقها عليّ هكذا في عصائب الأوقات: لقد كان الطعام على متن هذا البانطون رديئاً جداً ومختلفاً أيضاً عن طعام الغابة والحاج عثمان، فالحبوب المطحونة من الذرة والشعير كأنها

الرغيف المرقوق يأكلونه مخلوطاً ببعض عصيدة البامية التي يسمونها «الويكة» هي الطعام الأكثر شعبية وانتشاراً على السفينة ليلاً ونهاراً، ولولا فاكهة الموز و المانجة والباباي لكان أصابنا من الأمراض من حموضة هذه الأرغفة وعسر هضمها ما أصابنا، ولا أدري كيف كان يبتهج طاقم السفينة وجنودها بهذا الطعام الحامض العسِر! ألا يشعرون بثقل هذه الأكلة، وغلظ مذاقها، وعسر اهتضامها، ولكن الغريب أن شتاينر لم يبدُ عليه ذلك الشعور الذي أشعر به، وكما كنتُ أتوقع من رجل أجنبي فقد كان يأكل بنهمٍ وشراهة في بعض الأحيان إذا أوقف إضرابه المؤقت عن الطعام، فهل هو الجوع يفعل به ذلك فيفسد ذائقته؟ أم هو معتاد على هذه الأكلة؟ ربما كان الأمر كذلك!! فهذا الرجل خبير بهذه الأرض حقّاً.

ليس هناك أثر للنقيب الضو، وأنّى لي أن أعرف مكانه وأنا مغروز في مكاني هذا دون حراك.

كان العمال المتذمّرون يعودون إلى البانطون العالق، وهم يلكمون ماء النيل الطيني بقبضاتهم، إذ لم يكن في حسابهم أن يقضوا وقتهم في الشدّ والسحب، وأما الناس على الشاطئ فقد أطفأهم الليل وارتحلوا حاملين متاعهم ودوابهم لما أدركوا أنه ليس ثمة شيء ذو قيمة على السفينة لينتفعوا به، وإلا فإن العمال كانوا سَيَشُون به إليهم.

صرخ القبطان في وجهي:

- أين صاحبك الضابط هذا؟ أخبِرْه أن يأتي هو وأصحابه ليجرّوا

هذا الحديد!!

- هل نزل إلى شتاينر؟! نعم... هناك! لابد من ذلك! فهو لن يضيع غنيمته ولابد أن يظل قريباً منها. - حدثتُ نفسي-.

هرعتُ إلى مدخل السفينة السفلي، فاستوقفني أحد الجنود على شفة المدخل، وأمرني أن أظل مكاني حتى يأذن النقيب!!

- لماذا لا يأذن لي؟ هل هناك ما يمنع؟ لقد كنت معه منذ البداية.

التزم الجنديّ الصمت، وهو يجول ببصره في أنحاء المكان كأنه يخشى من رصاصة تأتيه من أي مكان.

اقترب القبطان مني يحتجّ على ما وصفه بأخلاق النساء، يتركون العمل الجاد لهم ويكتفون بالاختباء أو الاستلقاء!!

- لكن النقيب الضو ليس كذلك!!

- أفٍّ لك وله، دعني أمرّ يا زول.

- ممنوع!.

لم يكد يتم القبطان صرخته الغاضبة حتى برز لنا النقيب من جوف السفينة يطلب منا الهدوء والنزول إلى الأسفل.

- أريدك أيها القبطان أن تجرّ السفينة فوراً نحو الماء وأن تبحر بها خلال ساعة!!

- لا يمكن، هذه السفينة كالفيل الميت لا يحرّكه إلا رافعة بحرية!!

- أحضِرْها الآن!

– لا توجد أية واحدة هنا، ونحتاج إلى يوم كامل أو يومين لنجد واحدة – إن وجدنا –!

– ليس هناك وقت أيها القبطان، قد نموت جميعاً إذا لم تتحرك السفينة الآن!.

– افهمْ بالله عليك! الليل أقبل بظلامه، والمياه ضحلة، والسفينة ثقيلة، والعمال غاضبون ومتعبون، هل هناك أكثر من هذه المسوّغات لتفهم كلامي!!

– سنخرج جميعاً لنجرّ السفينة، حتى لو اضطررنا إلى نقل الطين نقلاً من تحتها!!

– يا أخي!! يوجد هنا تماسيح وثعابين ضخمة وأسماك خطيرة، وأنت تتحدث عن طين في الماء وليس في البر، لا يمكن العمل في الليل!!

– آخر كلام عندك؟

– ستحتاج السفينة إلى بضعة أيام لسحبها من الطمي، فهو شديد الالتصاق بفريسته، وليست لدينا آلات سحب أو رفع. عليك أن تفكر في أمر آخر!

– هل تريد التخلص منا في هذه الظروف، سأحرق السفينة كلها إذا لم تتحرك الآن أفهمت؟

– أحرِقْها وسأشعل معك كل الجوانب التي لا تستيطع الوصول إليها أيضاً! ارتحتَ الآن؟

كنتُ أقف واجماً ساكناً أمام هذا الهياج فهل علينا أن نظل مختبئين حتى يرتفع ماء النيل في غير موسمه ليحمل السفينة ويضعها في ثبج النهر الكبير لتكمل مسيرها؟.

انفضّوا غاضبين بلا جواب، ثم عاد تجمهر العمّال على ضوء فانوس زيتي شاحب يسكبون الشاي على طرف السفينة، ومضيتُ إليهم أبحث عن مخبأ، وطال بهم السمر ساعات حتى انتبهتُ إلى أحدهم يتحدث عن وجود مشروع طرق لشركة صينية قريبة من المكان، وأنه كان يعمل معهم في الخدمات والتحميل، وكان يحاول محاكاة لغتهم بما يشبه مواء هُرَيْرة صغيرة جائعة تنادي أمها لا تنطق سوى بحروف هوائية مُمالة بواو ساكنة ينعقد عليها الضمّ (هَوْهُو) واستغرق العمال في الضحك من تمثيل صاحبهم للغة القوم في هذه اللحظات الكئيبة الثقيلة.

لابد أن تكون هذه المعلومات مفيدة فهل يُعقل وجود المشروع الاستثماري في هذه المنطقة الخطرة؟

- أتسمح لي أيها النقيب بهذا الاقتراح؟!!

- أرجوك دعني الآن أفكّر، قد تكون هذه الليلة هي آخر ليلة.

- عندي معلومات سمعتها من أحدهم الآن.

وأخبرته الخبر!.

كان النقيب مذهولاً ولم يكد يصدّق، ويكرر عليّ يسألني عن مصدر المعلومة فأخبرُه، فيبعث في طلبه ويتثبت من صحة سمعي وفهمي، حتى

اختمرت الفكرة:

- الصينيون يُنشئون مشاريعهم في مناطق آمنة، فلا بد أن تكون هناك اتفاقية بين الصينيين والحكومة والمتمردين، هذه فرصتنا.

صاح في رجاله:

- سأتحرك الآن مع هذا العامل ولن أتأخر!

- إلى أين تمضي؟ وإلى متى سننتظر؟ وماذا نفعل بهذا الرجل ورفاقه؟

- لن أتأخر، سأتوجه ناحية إدارة المشروع الصيني فهناك سأجد طريقة تأمين خروجنا من هذه المنطقة، لابد أن يكون هناك إداريون حكوميون لديهم وسائل اتصال متقدمة مأمونة لأغراض العمل ليست ضمن مجال الرصد الاستخباري.

- وشتاينر؟

ضمّ شفتيه إلى بعضهما، وحرك رأسه إلى أعلى وإلى أسفل، ونادى عريفاً من الجنود وهمس في أذنه بصوت أسمعه: أطلق النار بالمليان على هذا الخواجه... إذا حاول الهربَ أو شككتَ بأي شيء، ثم همس همسات غير مسموعة غيّرت وجهَ العريف فسألَ بكلمات مسموعة:

- لماذا أطلق النار على صديقك أيضاً، أليس هو معنا!.

مَن يقصد بهذه الكلمات؟ هل يعنيني أنا؟ لا يمكن!!... صرختُ في وجه النقيب:

- إنك خائن لعين، تريد أن تقتلني؟!، كان ينبغي أن أشكّ بك من البداية أيها الساحر!

- هذا أمنٌ قومي ولن نسمح بتسريب معلومات إلى الخارج، ولن أجامل أمّي إذا اضطر الأمر- تحدث النقيب بتوتر وغضب-.

- لكنني لستُ أمّك، وسأقتلك وأقتل كل من يحاول أن يمسّني، أفهمتَ!!

- لستَ تفهم شيئاً!.

- لستُ لعبة عندكم، مرة أكون جزءاً من الأمن القومي! ومرة أكون خطراً عليه!!.

- اسمعْ! لا أريد أن أضيّع وقتي أكثر، هذا الإجراء في حال الضرورة فقط، ولا يرغب أحد في الوصول إلى هذه المرحلة!

- ولماذا لا تضحّي بالجنود كلهم وهؤلاء العمال؟ لماذا اخترتني أنا من بين هؤلاء؟ يبدو أنك عنصري كريه، سلبتك سنوات وحدتك في الغابة معايير الفهم، سأغادر الآن!

- لن تغادر أبداً، سأقتلك إذا تحركتَ...!!!

ورفع النقيب مسدسه في وجهي. وأنا أقف في وجهه متحدّياً!!.

ضجة في الخرطوم!!

في العاصمة الخرطوم كانت العيّنة التي أرسلها النقيب الضو من تراب المنطقة الميتة ومائها تثير تفاعلاتها بعد أن قدّمت مختبرات وزارة الصحة الاتحادية تقريرها بأن هذه العينات ملوثة بعناصر قد تكون مشعّة، ولكنهم غير قادرين على اكتشاف نوع هذا التلوث أو خطورته، ونصحوا بإرسالها إلى مخابر خارجية، وأوصوا بإرسال بعثة علمية إلى المنطقة لاكتشاف ما يجري، وذيّلوا توصيتهم بأنها عاجلة وخطيرة.

لم تلقَ التوصية اهتماماً من المسؤولين رغم خطورة مضامينها، وشجّعهم على ذلك أن المنطقة ليست خاضعة لسيطرة الحكومة المركزية، وأن الإمكانات المادية غير متوفرة لإرسال بعثة علمية، وبعثوا العينات إلى كلية العلوم بجامعة الخرطوم وهيئة الطاقة الذرية، وكانت وزارة الصحة قد أصدرت بياناً توضيحياً بارداً يزعم أن ما تتعرض له الحيوانات هناك، والوَفَيات التي تم رصدها من قِبل المنظمات الإغاثية والإنسانية، كانت بسبب الإصابة بالكوليرا!.

اتصل مدير جامعة الخرطوم وهو طبيب بيطري في الأصل بصديقه وزير الصحة الاتحادي نافياً صحة المعلومات في البيان الرسمي، وأن الدلائل عندهم حسبما أفاده تقرير أولي لقسم الكيمياء الحيوية ووظائف الأعضاء بكلية العلوم - تشير إلى وجود عناصر مشعة خطيرة، ويجب اتخاذ تدابير احترازية وقائية، والتأكيد على إرسال قوة علمية وليس مجرد بعثة، وشدّد على ضرورة إرسال العينات إلى مخابر مصرية أو سعودية وتحديد عنصر التلوث في هذه العينات بدقة، وألمح له إلى أن الخبر تسرّب إلى اتحاد طلاب الجامعة الذي يعجّ بالمعارضين السياسيين، وقد يجعلون من ذلك خبزاً للمعارضة، وقد تنفجر الأمور سياسياً وإعلامياً إن لم يتم التعامل مع الموضوع بجدية.

كانت الصحافة تنشر الأخبار بحيادٍ يميل إلى القلق أحياناً، ولم تخرج القضية عن السيطرة إذ لا تزال معطياتها قليلة، وهي غير مؤكدة أيضاً.

باتت حكاية الكوليرا مصدر خوف أكثر مما كانت مصدر تهدئة، وبدأت تتسرب المعلومات التي تشكّك في البيان الرسمي إلى الصحافة، وتدخلت مفوضية الأمم المتحدة في الخرطوم تستفسر عن صحة المعلومات التي تنشرها الصحافة، وعن صحة ظهور حالات كوليرا في تلك المناطق، وتطالب بتوضيحات عاجلة بغرض مواجهة وباء الكوليرا قبل أن ينتشر ويحرق المنطقة.

كانت وزارة الصحة في حيرة من أمرها، فلم تكن تتوقع أن تكبر هذه

القضية هكذا، وزاد الوضع سوءاً عندما اتصل قائد السلاح الطبي في الجيش بوزير الصحة يسأله عن التقرير الرسمي عن هذه العينات، فقد كانت الوزارة غير معتادة على متابعة الجهات الحكومية لمثل هذه الاختبارات، لذلك كانت تموت معظم القضايا التي ليس وراءها مُطالِب.

قررت الوزارة استباق محاولات استهدافها الإعلامي فعجّلت إرسال العينات إلى مخابر مصرية رسمية على الفور، واتصلوا بوزارة الزراعة المصرية المسؤولة عن هذه الملفات تجاه السودان خاصة، وأصدر وزير الصحة بياناً تطمينياً يؤكد السيطرة على وباء الكوليرا، وأن ما تم اكتشافه من وفيات بشرية كان حالات معزولة في مناطق ليست ذات كثافة سكانية، وأنَّ نُفُوقَ الحيوانات البحرية كان بسبب ظروف طبيعية عادية!.

لم تكفّ الصحافة والمنابر الحزبية والطلابية عن المطالبة بتوضيح حاسم، بينما كانت التسريبات العلمية تجد طريقها بسرعة إلى وسائل الإعلام؛ و دفعت الضجةُ رئاسةَ الجمهورية وقيادة الجيش للتدخل في الأمر، وأصدر الناطق الرسمي باسم الحكومة - وكان وزيرَ الإعلام - تصريحاً أكد فيه اهتمام رأس الدولة بهذا الموضوع، وأن الحقائق ستنشر كاملة فور صدور التحاليل المخبرية من الجارة الشقيقة «مصر»، وعقّب على المخاوف بأن ما يُنشر هنا وهناك مجرد تكهّنات، وأن الأمور لا تدفع للقلق.

في المشروع الصيني

لم أكن أتوقع أن يصل الأمر بيني وبين صديقي النقيب إلى هذه الحالة، ولكن لم يكن بيدي خيار فهو يريد التضحية بي وحدي، وليس له سبب أقتنِع به، وكيف أقتنع بأي سبب سيسلب روحي مني؟!

كان القبطان ينظر إلى الموقف بصمتٍ، ثم تدخّل بيننا يكسّر الجدار الشفاف القاسي الذي فصل بيني وبين النقيب بيديه دافعاً كلينا إلى ناحية بعيدة عن صاحبه.

- يا جناب الضابط!!، هذا الرجل منكم وفيكم، وهو الوحيد الذي يمكن أن تطمئن له، لأن له مصلحة حقيقية في الخروج من هنا! وليس مثلنا نريد التخلص منك!

- لم يكن ينبغي له أن يخاطبني بهذه الطريقة، فهذا الإجراء نتبعه فقط على سبيل تشديد الأوامر، ولا نعني به ما نقوله أحياناً.

- أنت عسكري يا جناب الضابط، وكلمات الضابط إلى من هو أدنى منه في المهمات أوامر غير قابلة للنقاش: نفّذ ثم ناقش.

- نحن في السودان، ونفهم بعضنا، وليس هذا الأمر واقعياً بالضرورة.

بدأ مزاجي بالاعتدال:

- تعني أنك تعتذر عما بدر منك!؟

- أنا لا أعتذر وإنما أوضّح!

وتحرك النقيب الضو نزولاً برفقة العامل الثرثار من السفينة، والتفت إليّ القبطان:

- إن صاحبك هذا يكنّ لك مودة خاصة لذلك وجّه الأوامر إلى هذا العريف أن يتصرف مع أي أحد حتى لو كان صديقه العزيز، هل فهمتَ الآن؟

- أتمنى أن يكون كلامك صحيحاً لكنني لا أشعر بما تشعر به، وأعتقد أن هذا الرجل غير مأمون الجانب، هل تظن مثلاً أنه سيفي بوعده لك ويعطيك أجرة هذا البانطون؟!!

أحسستُ حينها أنني أخطأتُ خطأ جسيماً بالتأليب على النقيب الضو في لحظة الغضب، فهذا القبطان أيضاً نزق جداً رغم ما أبداه قبل قليل من شهامة نفسٍ، وقد تجعله هذه الكلمات مني في الجانب المعادي لنا، لكن القبطان ابتسم وقال:

- أعرف أنني لن آخذ شيئاً! لكنني سأستفيد كثيراً من هذا الأمر وسترى!

وتوجهنا بأبصارنا صوب النقيب ورفيقه وهم يتحركون صوب الشمال

الغربي ماشين على أقدامهم إذ لم يكن ثمة سيارات أو حتى طرق مسفلتة أو ترابية تسير عليها، واتصلت أبصارنا طويلاً بهم حيث إن الغطاء الشجري للغابات صار مكشوفاً لبعدنا عن المناطق الغابية والأدغال وقربنا التدريجي من الصحراء المدارية الوسطى التي تختلط فيها الخضرة العشبية ونباتات السافانا وأشجار الهُشاب الصمغية برمال الصحراء الصفراء، تتحرك معهم على طول الدروب وعرضها شجيرات «المُسَكِيت» الشوكية المتطفلة، وكأنها تشير إلى نهاية خيط الأمل الأخضر وبداية خيط الخطر الأصفر.

مرت ساعات طويلة تحت وهج الشمس اللاهب، يزيد شك النقيب - بزيادة ساعاتها - بصحة معلومات هذا العامل حتى لاحت لهما بشائر الاقتراب عندما وقفوا على آثار عجلات كبيرة لسيارات الدفع الرباعي التي تستخدمها الشركات النفطية عادة في تلك المناطق الوعرة، لكن النقيب الضو كان يخشى - بحسّه الأمني النامي - أن تكون هذه السيارات لإحدى الجماعات الأهلية المتمردة فكان شديد الحذر في حركته وتباطأت خطواته عمّا كانت عليه من حثٍّ واندفاع واستعجال.

وتضاعفت ساعات الحذر على ساعات المشي الحثيث خشية الغدر أو الكمين، حتى شاهد تلك البيوتَ الإسمنتية المصنوعة من الفايبر والبلاستيك المقوى المسبقة الصنع، تبرز من جدرانها مكيفات هوائية غازية وصحراوية تستخدم القش المبلل للتبريد، و أدرك النقيب الضو

أنه أمام المخيم الصيني المقصود، إذ إن الجماعات المتمردة ليست لديها تلك البيوت أو التجهيزات، فمضى إليها مسرعاً وخلّف حذرَه المفْرِط و رفيقَه العامل المنهك وراءه دون أن يلتفت إليه، أو يطلبَ منه إطلاق ساقيه ليلحقه، فوصل النقيب إلى بوابة المخيم قبله لكن حراسة المخيم أوقفته، وطلبت إليه أن يثبت مكانه وهم يطلقون صيحتهم: سابِتْ (ثابت) ويمدون ألفها كأنهم في طابور عسكري، وطلبت الحراسةُ منه التعريف بنفسه، وقد شهرت بنادقها واستنفرت، فعرّفهم النقيب على هويته، وطلب منهم لقاء مسؤول الموقع لأمر عاجل.

دخل النقيب الضو وحده إلى أحد الأبنية الجاهزة ولم يبال بصيحات رفيقه المغبرّ اللاهث وراءه مكتفياً بالإشارة إليه أن يبقى عند البوابة حتى يعود، ففوجئ بأن مدير الموقع هو أحد المهندسين السودانيين الشباب فرحّب به، واحتفى بمقدمه ظاناً أنه جاء لغرض يتعلق بأمن المنطقة أو المخيم وعاجَله بالاستفسار عن سبب قدومه:

– نريد منك تأمين اتصال عاجل بقيادة المنطقة لتأمين طائرة نقل خاصة.

– ليس ذلك من مهماتنا ونحن جهة فنية ولا علاقة لنا بالجيش إلا بما يتعلق بتأمين المخيم وتنسيق نقل المعدات الثقيلة إليه!.

– الأمر طارئ للغاية ولا سبيل لشرح الأمر، عليك الاتصال بالعميد «الهادي» قائد المنطقة العسكرية وأنا سأتولى الباقي.

- كيف سأتصل به، أنا لا أعرف الوسيلة إلى ذلك!!.

- اتصل بالولاية وهي ستؤمن الاتصال، أو اتصل بجهة التنسيق العسكرية فهذا أسرع! والمهم ألا يكون الاتصال عبر اللاسلكي!

- لدينا شبكة اتصالات خاصة فلا تقلق! لكنها مجازفة كبيرة مني، ولو بلغ الشركة هذا الأمر فسيفصلونني من العمل، لأنهم معروفون بالحياد، ويلتزمونه بشدة.

- للضرورات أحكام، وأعِدُك أن يظل الأمر طيّ الكتمان، ولا يصل إلى إدارة الشركة، ولو لزم الأمر تدخلاً حكومياً فسنفعل.

أجرى النقيب الضو اتصاله بقيادة المنطقة وطلب إحضار طائرة خاصة فاعتذروا له بأنهم لا يملكون هذه الصلاحية لكنهم سيرسلون له جيبات عسكرية بعد أن أقنعهم بخطورة الأمر وطلب منهم تعزيزات عسكرية سريعة ومجهزة تتوجه إلى مكان رسوّ السفينة، ووصف الأمر لهم بأنه قضية أمن قومي من الدرجة الحمراء.

ودّع النقيبُ المهندسَ الشاب وشكره على معاونته وجميله، ثم توجه إلى بوابة المخيم برفقة المهندس ليجدا العامل المنهك قاعداً على الأرض يستعد لاحتساء كوب من الشاي الأسود مع أفراد الحراسة عند البوابة، فأمره النقيب بالتحرك فورا، ولم يستمع لتوسلات العامل المسكين بالانتظار لدقائق حتى يحتسي شايه فجذبه من يده، ومضى به نحو النهر حيث تنحشر السفينة في وحل النيل.

كان النقيب الضويحث الخطا مسرعاً مع رفيقه للوصول إلى البانطون العالق حتى وصلا إليه وهما في إعياء شديد جعلهما يرتميان على الأرض على مشهدٍ قريب منا، وقد تحجرت منهما الأقدام بفعل جفاف الطين عليها، طالبين من العمال وأحد الحراس أن يسندوهما للوصول إلى السفينة، وأحاط بالنقيب مجموعتُه على مرأى مني ننتظر منه البشارة، فتكتّم على الأمر أول الأمر، وطلب أن يرتاح ثم أسرّ لنائبه أثناء غيابه أنه أنجز المهمة، وأن قوة عسكرية مؤللة ستكون قريبة الوصول.

لم تمض على استراحة النقيب نصف ساعة حتى عاوده القلق من استمرار وضعهم في هذه السفينة، لاسيما أنه لا يعرف بالضبط متى ستأتي القوة!؟ وهل ستكون هناك مفاجآت غير محسوبة؟ بينما كان ديفيد يشعر بحراجة وضعه، وأنه سيكون بين يدي أعدائه قريباً، فيصرخ بشدة، ويُظهر الانهيار النفسي، لدفع محتجِزيه إلى تقديم رعاية صحية له باستدعاء جهة ما تكسر عزلته، وتواصَلَ احتجاجه الصاخب مستأنِفاً طلباته بالاتصال بالأمم المتحدة، ومهدداً النقيبَ والحكومة السودانية بأنها ستدفع الثمن غالياً لإهانتها شخصية دبلوماسية مهمة! ثم صار يتلفظ بكلمات نابية استفزت أحد حراسه فضربه بعقب بندقيته على كتفه، ثم صفعه على وجهه صفعات متتالية زادت من شراسة ديفيد، وصار يدحص برجليه ويدوِّر رأسه ويهاجم بصدره كأنه ديك مصارعةٍ يمنيّ مهزوم يُصارِع غريمه بآخِر رمق، وقد تبقّع بالدم القاني ونُتِف

ريشه نتفاً.

تدخل النقيب الضو صارخاً في وجه الجميع، وطرد الحارسَ الغاضب، وأمره بالصعود إلى سطح السفينة واستدعى آخر مكانه، وتوجّه إلى ديفيد الهائج وهو يَفتِل سَبَلات شاربه من غضبه فأمسكه من ناصية شعره وشدها للأعلى وصرخ في وجهه بصرامة تصحبها رذاذات من ريقه الجاف المتلوّن بغبار الصحراء:

- إذا لم تتوقف عن هذا النباح فسأملأ فمك بدمك وأخرسك به!.

شعر ديفيد بأن الأمور لا تجري لصالحه فصمت، وهو ينظر شَزْراً بعينين حاقدتين إلى النقيب الضو تتوعدانه بثأر قريب، بينما ظل الأسرى الآخرون يختلسون النظر برعبٍ دون حراك أو صوت.

بلغ القلقُ أوجَهُ عندما سمع النقيب صوت طائرة مروحية تحلق بالقرب من السفينة، لاسيما أن الاتفاق جرى أن يرسلوا قوة عسكرية بجيبات عسكرية، لكن النقيب كان يعلم أيضاً أن المتمردين لا يملكون طائرات عمودية في تلك المنطقة، فهل هي طائرة أجنبية تقوم بعملية خاصة؟!!

وعلى الفور انتشر المسلحون على متن السفينة، وكان النقيب معهم، وأمر اثنين من الجنود بالبقاء مع شتاينر وإطلاق الرصاص عليه وعلى من معه إذا جرت أي مواجهة مسلحة ولم يروا النقيب على السفينة، وأمرهم أن تكون الطلقات بين عينيه حتى لا تكون له أية فرصة في النجاة.

كانت الطائرة المروحية تقترب من السفينة، وهي تحاول أن تظهر

نفسها، وتبتعد في الوقت نفسه عن مرمى النار، وبدأت بالهبوط في منطقة مكشوفة على مرأى من حراس السفينة وعلى مسافة آمنة من رشاشاتهم، وكأنها تعطي لهم إشارات بأنها مروحية صديقة، ورغم أن المروحية من المروحيات المستخدمة لدى الحكومة، فإن النقيب الضو استمر في قلقه فقد تكون مخطوفة أو أي شيء غير متوقع!.

استقرت الطائرة تماماً على الأرض، وتوقفت شفرات المروحية عن الدوران، ونزل منها رجل بدين طويل القامة أسمر البشرة مدوّر الوجه يحمل عصا الضباط القصيرة تحت إبطه وقد لمعت صلعته السمراء المتعرّقة، وتوجه صوب السفينة صائحا بمن على متنها:

- السلام عليكم، أنا العميد شمس الدين قائد المنطقة العسكرية، أريد مقابلة النقيب الضو.

- إنه صوته! - قال النقيب الضو-. مرحباً وأهلاً وسهلاً.

- أنا في مهمة رسمية أرجو تأمين وصولي لكم.

قفز النقيب الضو من خشبة السفينة الواصلة بينها وبين الجرف الرملي أثناء نزوله وقفز وراءه أحد الجنود، واقترب من العميد شمس الدين الذي بدا بكامل بزته العسكرية وبرتبته المطرزة على كتفه، وتعانق الاثنان بلهفة واشتياق يدلان على علاقة وطيدة قديمة بعد أن أدى النقيب وجنديّه التحية العسكرية الواجبة باحترامٍ وهيبة.

كان العميد شمس الدين هو المسؤول المباشر عن عمليات النقيب

الضو الميدانية خلال السنوات الثلاثة الماضية، ولم يترك العميد شمس الدين الفرصة لمشاعر المودة الحميمة لتتطور إلى مجاملات ومؤانسات، فبادر إلى إبلاغ النقيب الضو أنه قد صدر إليه تكليف رسمي من رئيس الجمهورية القائد العام للقوات المسلحة بمتابعة ملف العينات المشبوهة ميدانياً، وأنه تبلّغ رسمياً بغنيمة النقيب الضو في تلك المنطقة رغم أنه لم يتبين بعدُ كُنْه هذه الغنيمة.

طلب النقيب من قائده العميدِ سرعة نقل (الصيد الثمين) الاسم الرمزي لـ «ديفيد شتاينر» إلى الخرطوم للتحقيق معه، وقدّم لقائده تقريرا شفوياً عن هذا العميل وكيفية القبض عليه، وبادله العميد المعلومات: أن العينات تحمل مؤشرات واضحة أنها عينات مشعة، وأنهم يشكّون أنها نفايات نووية دفنتها إحدى الدول هناك بالتعاون مع حركة التمرد، وأنهم يعلمون بوجود نشاط عسكري أجنبي عبر مطار صغير على الحدود السودانية الكينية يقوم بنقل براميل فولاذية صغيرة الحجم لم يتعرف أحد إلى طبيعتها.

عند ذلك فاجأ النقيب الضو صديقه العميد بأنه تحفّظ على كمية براميل من الطائرة التي نزل منها شتاينر وهي ثقيلة الوزن، ويبدو أنها مصنوعة من معدن صناعي متين، إذ لم يستطع أحد فتحها للتعرف إلى ما بداخلها، كما أنها لا تحوي فتحات مغلقة بحيث يمكن إعادة فتحها منها، بل هي براميل مكبوسة في قالب واحد.

أدرك العميد شمس الدين أن النقيب الضو حصل على كنز عظيم، وأنه بات يملك الآن دليلاً خطيراً على مشروع سري كبير تقوم بالتغطية عليه أجهزة خطيرة، فقرر الذهاب بنفسه إلى الخرطوم مع الأجنبي الأسير ورفاقه، وقام بالاتصال بقاعدته الجوية، وطلب منهم إحضار قوة كبيرة إلى مكان البانطون العالق وطلب أن يكون حضورهم خلال ساعات ومن خلال المروحيات، وأن يعدّوا له طائرة خاصة في مطار كوستي للسفر بها إلى الخرطوم، ثم اتصل بقيادة المنطقة في الخرطوم وطلب منهم الاستعداد لعملية استلام من نوع «أحمر» والتي يبدو أنها مصطلح يعني السرية التامة والجاهزية الكاملة والاستنفار الأقصى.

دخل العميد شمس الدين إلى البانطون برفقته حراسته الخاصة التي لحقت به عند نزوله من الطائرة، ودخلتُ برفقة النقيب الضو إلى داخل السفينة وشاهدوا ديفيد شتاينر مكبلا أسيراً وقد بدا صالباً متماسك القوى، وقد بزغت عروق عينيه بحمرةٍ فاتحةٍ من سهره المتواصل حيث كان لا يكاد ينام أبداً، وما إن دخل العميد عليه ولحظ شتاينر في بزته تلك الرتبَ العسكرية، حتى عاود الصراخ ثانية، وهو يطلب بعربية مكسّرة أن يسلموه إلى الأمم المتحدة، وأنه رجل يعمل في المجال الإغاثي، وأن هذا النقيب اعتدى عليه وعذبه وآذاه.

ابتسم العميد شمس الدين في وجه شتاينر، وعاد إلى سطح السفينة مع النقيب الضو، وتعرّف إليّ بكلمات سريعة سائلاً عن اسمي وبلدي وطبيعة

عملي، ثم التفت عني إلى ما هو أهم، حينها كنتُ أكتم في نفسي سعادة غامرة لقرب خلاصي من هذه الأدغال رغم أنني كنتُ مكتئباً أيضاً لعدم قدرتي على أداء مهمتي الإعلامية التي كنتُ أتوقع أن تقدّمني كشخصية إعلامية خبيرة في مجال التوثيق الصوري، وكنتُ حزيناً أيضاً على رفاقي سيف الدين ومنقو الذين فقدت أثرهم في حادثة الطائرة المنكوبة، ولكن العميد شمس الدين قرأ في وجهي أفكاري المختلطة ومشاعري المتضاربة أبلغني بخبر غلّب على نفسي السعادة الحذرة والأمل المتفائل، بأن ثمة بعض الناجين من حادثة الطائرة - ولا يدري إن كان رفاقي من بينهم-، وهم يرقدون الآن في مستشفى السلاح الطبي بالخرطوم، فجرى على لساني الدعاء لهم بالنجاة.

إلى الخرطوم

قضى الجميع الساعات الثلاثة قبيل وصول الطائرات في قلق شديد، وارتفع منسوب قلقهم بعد سماع صدى صلّيات نارية من مضادّات أرضية حيث كانوا يميزون أصوات النيران لخبرتهم الطويلة في ميادين المعركة.

انتشر الجنود على سطح السفينة، بينما أمر العميد حراسه الثلاثة أن يراقبوا المسالك القريبة من السفينة في الأدغال خشية هجوم غير متوقع.

كانت هناك مروحيّتان تحلّقان في الجو، تقتربان من الأرض على مسافة ليست بعيدة، ثم سُمِعت طرّادات نهرية تجري مسرعة وهي تطلق صليات من أسلحة رشاشة منصوبة عليها، وقد تهلل وجه العميد شمس الدين وبدت عليه علامات الفرح لأن هذه الطرادات الفرنسية الحديثة الرمادية لا تملكها إلا القوات الحكومية فعلم أن ثمة عملية عسكرية كبيرة في المنطقة، وتوقّع مظلة تأمين جوية وإنزالات مظلية في أية لحظة.

كان يظهر أن ثمة معركة تدور بين القوات الحكومية وقوات متمردة

على ضفة النهر المقابلة للبانطون لكن مسرح العمليات كان خارج المدى المكشوف للأسلحة الخفيفة، ومن الواضح أن كثافة النيران الحكومية فاجأت المجموعات المتمردة التي ظنت أن اقترابها من السفينة سيكون عملية صغيرة ولم يعطوا للحدث أهميته لنقص المعلومات عن طبيعة الهدف وخطورته كما أنهم مجموعة محلية تقوم بحرب عصابات خاطفة عادةً، وهي تعتمد على الكر والفر، ولم تعتدّ تلك الحالة الهجومية المركزة.

عند حلول الليل كانت هناك صليات نارية خفيفة ومتقطعة مما يدل على أن تلك القوات وصلت إلى مرحلة التمشيط العسكرية التي تتبع ذيول المتمردين وتتعقب فلولهم، بينما اقتربت الطرادات النهرية السريعة من السفينة تحلق فوقها المروحيات حتى وصلت إلى البانطون ونزل عشرات الجنود منها وانتشروا حول السفينة بسرعة احترازاً من أي مفاجآت غير محسوبة، بينما نزل العميد شمس الدين والنقيب الضو ورحبوا بالجنود والضباط الذين طلبوا سرعة ركوبهم في الطرادات على أن يركب النقيب الضو والأسير الأجنبي واثنان من الحراس في المروحية الخاصة بالعميد شمس الدين، بينما غلبتني دمعة حزينة عندما أدركت أنني لن أكون برفقة النقيب الضو الذي سيرافق العميد شمس الدين إلى كوستي ثم إلى الخرطوم مع بقية المجموعة وبقية الأسرى الأفارقة بينما سأترافق مع مجموعة لم آلفها كما تآلفت مع النقيب والحاج عثمان من قبل.

وكان في تشييعي عشرات «الحِدَأ» السوداء ذات الأجنحة المفروشة

في السماء تتزحلق في تيارات الرياح كانت تلوّح إلى عاصفة رملية هوجاء قادمة في طريقنا فجدّ بنا المسير وانطلقنا قبل أن تُلفّنا هذه العاصفة.

في الخرطوم

تواترت التقارير العسكرية الاستخبارية في الخرطوم أن ثمة نشاطاً محموماً في المنطقة التي تم فيها أسر ديفيد شتاينر، وأن هناك قوات عسكرية كبيرة للمتمردين مصحوبة بمجموعات تمشيط أمنية تتحرك في المنطقة، وهي تقتحم القرى المحلية، وتعتقل المئات من الشباب والفتيان وتحقق معهم عن رجل أجنبي أشقر فُقد هناك، وكان قلق النقيب الضو بالغاً جداً أفضى به إليّ عندما التقيته في الخرطوم بعد أربعة أيام من وصولي إليها من مطار مدينة «كوستي» العسكري، حيث ركبنا طائرة مدنية صغيرة يسمونها «التاكسي الجوي» نقلتني إلى العاصمة، وكان لقاؤنا في الشقة التي كنتُ أستأجرها في حي البوسطة في مدينة بحري، وكان يحدثني أن الحاج عثمان قريب من منطقة العمليات هذه، وقد يتعرض للاعتقال والتعذيب هو وعائلته لاسيما أنه من أصول عربية واضحة الملامح وهذا دليل إدانة حتى إنْ لم تكن هناك تهمة في هذه الأمور، وتحدّث عن استحالة قدرة الجيش على حمايته بسبب الانتشار

الكثيف للمتمردين، وصعوبة القيام بعمليات كبيرة في هذا الموسم الذي افتتحته أمطار الخريف المدارية، كما أنه من المستحيل الآن أن توافق القيادة العسكرية على تنفيذ عملية أمنية سريعة لإخراجه بسبب عدم وجود معلومات، والحاجة إلى قوات كبيرة ومعدات نقل عديدة لتحمل هذه الأسرة الكبيرة في ظروف خطيرة ستؤدي إلى ضحايا كثيرة.

في ذلك الأسبوع الذي قضيته في الخرطوم كنتُ متلهفاً لمعرفة ما جرى لرفاقي «سيف الدين» و«منقو» فتوجهت بعد يوم من وصولي إلى مستشفى السلاح الطبي حيث يرقد جرحى العمليات العسكرية، فردّني حراس المستشفى بحجة أنني أجنبي ولا أملك تصريحاً لدخول المكان ولم تنفع توسلاتي وتوضيحاتي في تبيين الأمر لهم فقد كان هذا المستشفى منطقة عسكرية تتشدد في إجراءاتها في ظروف الحرب والتمرد، ولم يكن أمامي سوى النقيب الضو ليساعدني في هذا الأمر، وأمضيت ثلاثة أيام باحثاً عنه في مكاتب الأمن والاستعلامات أضع في مكاتب الاستقبال عندهم ورقة باسمي وعنواني وهاتفي ورغبتي في لقاء النقيب لأمر عاجل، بينما كانت هذه المكاتب ترد عليّ باستخفاف أن أحداً عندها لا يحمل هذه الرتبة بهذا الاسم، ثم باتوا يتلطّفون بي لمّا رأوا حرصي ولهفتي للقاء رفاقي ويعدونني بأنهم سيتصلون بي إن كان ثمة خبر، فما كان مني بعد يأسي إلا أن ذهبت لقيادة الأركان أسأل عن العميد شمس الدين ووضعت عناويني في استقبال هيئة الأركان فما لبثت ساعات قليلة حتى طرق بابي

أحد الجنود طالباً مني لقاء العميد شمس الدين في الثامنة صباحاً بهيئة الأركان، فابتهجتُ لذلك، وتهيأتُ لهذا اللقاء بهندام حسنٍ أعدَّهُ لي جاري الكوّاء الذي كوى ملابسي بمكواة الفحم الحديدية السوداء التي تصطخب في جوفها فحَماته المحمّاة في منقل صدئ قديم، ثم داريْتُ رائحة الملابس التي تثيرها خلاصة العرق المنقوع في الشمس المختلط بمسامات الملابس البيضاء التي أصابتها حرارة المكواة المضطربة الحرارة على امتداد صفيحتها المعدنية التي تبسط الملابس بقوة اليد الضاغطة.

تبلغ الساعة العاشرة إلا ربعاً صباحاً!

كنتُ أقف على بوابة هيئة الأركان تحسّباً من أي طارئ يؤخرني عن ميعادي مع العميد، وكم كانت صدمتي كبيرة عندما استأذنتُ الاستقبال للقاء العميد فأخبروني أنه لا يوجد لي اسم في قوائم الزوار أو الضيوف، فكررت عليهم أن الموعد طلبه العميد شخصياً وأرسل لي جندياً من طرفه للقائه هنا فاعتذروا وطلبوا مني الخروج من غرفة الاستقبال، وعادوا إلى محاورة بعضهم عني بينما كنتُ أخرج من بوابة الهيئة، فوقفتُ خارج الغرفة فزجرني عسكري يحرس المكان طالباً مني الابتعاد، وأبى أن يتفاهم معي ليعلم سبب وقوفي هاهنا فوقعتُ حينها في حيص بيص وتجوّلتُ في المكان على أمل بأن يراني العميد أو يرسل أحداً في طلبي وظللتُ ساعة كاملة أسعى بين الطرق القريبة وأحاول أن أجعل الحراس يرونني لعل خبراً يصلهم عني فيطلبوا مني المثول أمام العميد، حتى

استبدّ بي اليأس فعدت أدرج نحو منزلي آسفاً كسيفاً.

اختلطت المشاعر والأفكار في نفسي بين رغبتي في معرفة ما جرى لرفاقي وسبب عزوف العميد عن لقائي ولم أدرِ ما أفعل حتى عنّت لي فكرة الاتصال بصديقي الصحفي خوجلي فحملتُ نفسي إلى مقر صحيفته التي يعمل فيها وانتظرته ساعات في مدخل الصحيفة التي لا يقف على بوابتها أحد، وكان بوسعي الدخول في أي غرفة فيها وتقليب أوراقها ونهب محتوياتها الرخيصة دون أن ينتبه لي أحد، ولم يكترث أحد لي ولم يجبني أحد عن مكان وجوده، حتى سيدة الشاي التي تواجه مدخل الصحيفة لم تحرك شفتيها عندما سألتها عن مكانه إلا أنها لم تره اليوم! وربما ما يزال في الداخل.

عند ذلك كتبتُ مذكرةً صغيرة في باطن علبة مناديل ورقية لم أجد لها بديلاً، إذ إن أحداً لم يتفضّل عليّ بقطعة ورق! محتجين بأن الورق معدود عليهم، ويمكنني شراء ورق من دكان قريب ؛ كتبتُ في الورقة: إذا انقطعت أخباري فاعرف أنني في الجهاز، وإذا أنكروا وجودي فتحدَّثْ في صحيفتك عن البراميل المجهولة في المطارات العابرة في مواقع التمرد.

المشكلة أنني لا أعرف من يوصل الرسالة لخوجلي فقد تقع في يدٍ غريبة أو في يد واحد من أفراد الجهاز، فالأمن واسع النفوذ في المراكز الصحفية، والرقابة لا تنقطع.

كان خياري الوحيد الفتى الدارفوري النبيه «حَسُّون» فهو لا يرد لي طلباً

وكثيراً ما أغدقتُ عليه من البقشيش وهو يبتاع لي بعض الأغراض وكان يأتي كثيراً إلى خوجلي يحمل بعض مراسلاتي إليه عندما كنتُ في الوكالة قبل رحلتي؛ فركبتُ الركشة تلك البطّة بالعجلات الثلاثة حتى أوصلتني إلى حارة حسّون التي يبيع فيها لفائف السجائر الرطبة، يبيع السيجارة ونصف السيجارة، ولم يبع في حياته علبة كاملة لأنه لا يكاد يحصل على واحدة، فهو يشتري نصف علبة أو ثلثي علبة، ويبيعها، ثم يشتري سجائر بما تبقى له بعد أن يتناول وجبة فوله بالمشاركة، وقد تمضي أيام دون أن يبيع سجائره حين تجبره رغبته أن يأكل شطيرة همبرجر مع كوب عصير من الليمون أو المانجو، فتكون تلك الأكلة زاده لأيام قد تطول حتى ينفتح له قدَره ثانية.

عندما رآني «حسّون» ابتهج وعلم أن بإمكانه اليوم شراء العصير والهمبرجر، وقد صدق حدْسه، فقد أعطيته ثمن وجبة كاملة ووعدته بأخرى إذا سلّم الرسالة إلى خوجلي.

عندما رأى ورقة المناديل ضحك، وأخرج من جيبه علبة سجائر فارغة، وقال: هذه أنظف وأبيض من ورقتك البالية هذه، ماذا سيقول الناس عنك؟ لا تفهم في الذوق!!

أضحكتني سخرية الفتى الدارفوري وبراءته الودود فمسحتُ على رأسه بيدي وزدتُه على ما أعطيتُه، فقفز في الهواء صائحاً، وهزّ رأسه مستعداً لأداء المهمة.

عدتُ إلى المنزل منهكاً تتزاحم في عقلي المنهوك تأشيرات الشك والغضب والعجز، فوجدتُ مقابل وجهي المعتكِر ذلك العسكريّ الذي قابلني أمس، ينتظرني بسيارة مدنية أسفل البناية يطلب مني الركوب معه للقاء العميد فانفرجت أساريري، وركبتُ معه صامتاً حتى أوصلني إلى بوابة ثكنة عسكرية وسط العاصمة يمر أمام بوابتها خط سكك حديدية وأوقفني في ساحة مبنى قديم من ثلاثة أدوار له سقوف خشبية مثلثة مغطاة بالزينكو وتبدو أعمدة السقوف الخشبية أعلى الجدران منبئة عن قدم طراز هذا البناء وكأنه يعود إلى زمان الإنجليز والانتداب الثنائي المصري الإنجليزي.

دخلت إلى البناء فواجهني سلم خشبي عريض يلتف إلى الأعلى كالثعبان فارتقيتُه بصحبة العسكري حتى وقفنا أمام باب خشبي قديم، فدقّ العسكري الباب ثم دخلتُ وإياه، وأدّى تحيته العسكرية وانصرف، بينما ظللتُ واقفاً أمام مكتب صغير متواضع تتراصّ أمامه أرائك حديدية قديمة.

خرج العميد شمس الدين من غرفة صغيرة خلف المكتب وهو يمسح يديه بمنديل ورقي ورحّب بي طالباً مني الجلوس، واتجه صوب مروحة صغيرة معلقة على الحائط فأدارها لكنها لم تدُر فألقى عليها شتيمة ثقيلة، ثم راجع نفسه متعلّلاً بأن الكهرباء مقطوعة كالعادة.

اعتذر لي بجفاف عن عدم تمكنه من الحضور في الموعد السابق، وقال

إنه انشغل، ولم أشأ مناقشته في اعتذاره البارد هذا فقد كان لدي ما هو أهم من ذلك، وهو رفيقاي، فبادرني بالإجابة قبل سؤالي:

- لم نجد الجثتين ويبدو أن السمك أكلهما، ومعظم الجثث التي وصلت لغير صاحبَيك - رحمهما الله -.

اغرورقت عيناي بالدموع لكنهما لم تفيضا خارج محاجري تجلُّداً وهيبةً، وران على قلبي ظلام أسود كئيب رغم ما بدا عليّ من تماسكٍ، فحوقلتُ، واحتسبت رفيقيّ عند الله، وطلبتُ لو تمكنتُ من زيارة أهلهما فردّ بالإيجاب، ووعدني بترتيب ذلك لاحقاً، لكن لديه ما هو أهم حسب تعبيره البارد.

كان العميد شمس الدين يتشاغل عني بمكالمات هاتفية، والتوقيع على مكاتبات رسمية يُدخلها عليه عساكره واحداً تلو الآخر، وبينا أنا أطيل النظر في الباب هيبةً من العميد المتشاغل حتى طرق عليه طرقات ثلاثة توحي بالاحترام والالتزام، فأذن العميد للطارق فإذا به النقيب الضو!! فما إن وقعَت عيناي على عينيه حتى تهلل وجهي له - رغم غضبي القديم منه - وانتفضت عروقي بالدم، ووثبتُ عن كرسيّي، وعانقتُه بلهفةٍ، عَجِب لها النقيب الضو الذي أمسك عضديّ بكلتا يديه، وقال: إننا التقينا قبل أيام فقط!! وقبل أن أندفع في تفسير مشاعري الهاجمةِ عليّ حتى استوقفنا العميد شمس الدين وتدخّل بيننا بالقول: إن مهمتي لم تنته بعد!! ويجب أن أساعدهم للتغطية على وجود شتاينر بأيديهم،

فامتقع وجهي من خبره هذا، ووقع عليّ كصاعقة عنقودية انفجرت في كل ناحية مني وقد علا صوتي بالرفض وعدم الموافقة مهما جرى!، وقبل أن أسترسل في رفضي وممانعتي تلك أحاطت كف النقيب الضو بكفّي وطلب مني الهدوء والانتظار للتفاهم قبل الرفض المطلق وأن الأمر ليس صعباً وطويلاً كما أظن، بل هي خدمة سريعة تتطلب بضعة أيام، وأنه يتفهّم صعوبة المغامرة التي خضناها معاً في الأدغال، ورغبتي في عدم العودة إليها وأن العملية الجديدة ستكون في الخرطوم دون مشاق ظاهرة أو حوادث مؤذية وأن المطلوب مني فقط هو أداء سيناريو محدد ثم ينتهي الأمر وأعود إلى عملي وقومي.

بدا لي أنه لا مجال للرفض فأنا متورط في هذه القضية منذ بدايتها وينبغي لي أن أتمم مهمتي الإجبارية فخفقتُ برأسي مُشعِراً بموافقتي، فطلب مني العميد شمس الدين الانتقال إلى مكان آخر لمواصلة الحديث، وطلب من النقيب الضو الرحيل لأن مهمته انتهت، فتجهّمتُ حينها مستنكراً لكن النقيب أسرع بالمغادرة وبادر بإغلاق الباب فأغلق وجهي معه من الغضب، إذ شعرتُ بأنه خدعني، واستغل ثقتي به، ورفقتي إياه، وزجّ بي في هذه الغابة الاستخبارية السوداء دون إرادة مني.

فور نزولنا الثقيل إلى ساحة المبنى ركبنا سيارة رباعية الدفع مظللة وفيها ستائر معتمة وجعلوا بيننا وبين السائق ستارة أيضاً لكي لا أرى أين نتجه، ثم تحركت بنا السيارة في خط مستقيم، ثم في دوائر متفاوتة

الأقطار، ثم وقفتْ بنا داخل مبنى شبيه بالذي كنا فيه، وهو أقرب إلى المرافق الحكومية المعلومة الصورة، فعرفتُ على الفور أننا لم نخرج من معسكر هيئة الأركان، وأنهم داروا بي كل تلك الدورات لغرض التضليل، وفاتهم أنني عارفٌ بتضاريس العاصمة ومناطقها وطراز أبنيتها، ولم أشأ تعكير طمأنينتهم فتتغيّر ترتيباتهم.

نزلنا قبواً قديماً أسفل البناء صممت فيه غرفات مؤقتة يفصل بينها حواجز خشبية ولم أر فيها ما يشير إلى خصوصيتها أو وضع تقني مميز فيها سوى أنها في قبو قد لا يُسمح بدخوله لأحد غير معنيّ.

جلس النقيب الضو على كرسي كبير خلف مكتب خشبي قديم وطلب مني الجلوس ورنّ الجرس ليدخل علينا أحد الضباط بلباس مدني وعرّف بنفسه:

- الرائد حسين من جهاز الأمن الخارجي، وأنا مكلف بتغطية ملف العميل (دَرْش) «الرمز الكودي لديفيد شتاينر» بالتنسيق مع استخبارات الجيش.

- ثم توجّه إلي قائلاً: مهمتك بالضبط هي اختراق مجموعة استخبارية أجنبية تعمل على جمع المعلومات عن شتاينر، وهم يعرفون بوجودك هنا ولديهم معلومات عنك وسيسعون للقاء بك أو اختطافك إذا لزم الأمر، ونعتقد أنك ستلاقيهم قريباً، والمطلوب أن نظل على تواصل ومعرفة بكل التفاصيل وستكون النقطة الميتة للاتصال بيننا وبينك هي كافتيريا فندق

«أراك» بوسط العاصمة حيث ستضع قصاصات معلومات في صندوق الشكاوى بالصالة الغربية كل يوم بعد العصر الساعة الخامسة مساء، وستتحرك الآن بصفتك المهنية في مجال الصحافة والإعلام، هل هناك سؤال؟.

- كيف سيتصلون بي؟

- عليك الاتصال بوكالات الأنباء لتعرض عليهم فكرة إنجاز تقارير صحفية عن جنوب السودان وحركة التمرد وسيهتدون إليك، والمهم ألا تشعرهم بأنك لقيت واحداً منا ويجب أن تبدو كصحفي انتهازي محترف يمتلك ما يحتاجه هؤلاء.

- لكنني لا أعرف هذه الوكالات!!

- سنعطيك قائمة تفصيلية وعليك الاتصال بوكالات عربية أولاً ثم أجنبية ولن يثير الأمر الوكالات العربية كالعادة، والمهم أننا سنتصرف معك كأي مواطن ولا يعرف أحد من ضباط الاستخبارات بهذه العملية السرية وقد تتعرض لبعض المتاعب، وعليك الصبر فسنتدخل في الوقت المناسب، وإياك أن تكشف لأحد شيئاً!!.

- يا جماعة!! الموضوع كبر ولم نتفق على هذا!!

- ليس أمامك فرصة ويجب أن تساعدنا فأنت الطعم الوحيد المتوفر لدينا.

- انتهى اللقاء الآن وكل شيء واضح!! قال العميد شمس الدين ذلك

بحسم، وأنهى الجلسة.

- ستعود بك السيارة إلى منزلك وعليك التحرك من الغد للاتصال بالوكالات - بالتوفيق: قال الرائد حسين.

اعتذرت وكالة الأنباء العربية الوحيدة في الخرطوم عن استقبالي رغم إلحاحي عليها، واعتذرتْ الوكالةُ العربية الشرق أوسطية بأنه ليس هناك تمويل لهذه المشروعات وأن مراسل الوكالة لديه الكثير من المصادر، وهذا ما كنتُ أرجوه! ولم يطل ترددي إذ تَرَحّلتُ صوب وكالة أنباء أجنبية مرموقة لها خلفية استعمارية قديمة علمتُ سابقاً من عملي في مجال التصوير أن مديرها من الصحافيين الطموحين الشباب، فدخلتُ مكتبه وتعرّفت إليه، وعرفتُ من هيئته وسحنة وجهه ولكنته أنه ليس من أبناء السودان، وهذا ما أفصح عنه بالفعل هذا الصحفي الشاب «ماركو» إذ قال إنه من الجنسية الكينية، لكنه قديم الإقامة في هذا البلد، بل إنه درس فيها بجامعة الخرطوم ويعتبر نفسه واحداً من أبنائها.

طغت الأحاديث الودية على لقائي بماركو، ثم اختطفتُ أول الخيط للحديث في موضوعي الذي جئت من أجله عندما تطرق حديثي إلى النشاط الأجنبي في القرن الإفريقي، وتحدثت عن معلومات مهمة تتعلق بهذا النشاط، وأنني أريد كتابة تحقيق صحفي عن الموضوع شرط أن يُكتب باسمي، وأن أنال أجرا رفيعاً على هذا التحقيق، وقلتُ إنني مستعد لكتابة حلقات أخرى إذا وجدت تشجيعاً مقدّراً!.

ابتسم «ماركو» لهذا العرض وضم شفتيه إلى أسنانه ورد عليّ بأنه لا يملك أي صلاحية دون استشارة إدارة الوكالة، لكنه سيكتب عنواناً لهذه المعلومات، وسيرفق بها الطلبات مشفوعة بصفة الاستعجال للرد عليه،

ووعدني أن يتصل بي في الغد، وتوادعنا بكلمات المجاملة والمودّة.

بعد ساعة من وصولي إلى شقتي فوجئت باتصال ماركو طالباً مني الحضور إلى مكتبه، وأن أجلب معي «الحلوان» لأنه يحضّر له مفاجأة خاصة.

تهللت أساريري وتأنّقتُ ببذلة جديدة فطرق الباب!

إنه خوجلي!!

- أين أنت يا رجل؟

- لماذا كتبت هذه الورقة الخطيرة؟ ألم تجد غير ولد شوارع ليسلمني إياها؟

- لماذا تغضب؟ عرفتُ أنت تعمل معهم!! أليس كذلك؟

- لا تفهمني خطأ لكنني مطلع فقط كل ما أريده منك، أن تتوقف عن الاجتهاد، وسأغطّيك هذه المرة، لكنني لن أكون مسؤولاً عن تهورك ومغامراتك ثانية، إلى اللقاء ولا تتصل ثانية.

لقد وضع صخرةً هائلة على صدري المكدود، إذ لم أتوقع أن تكون حياتي مخترقة إلى هذا الحد، لم أعد أثق بأحد، كلهم يعملون في منظومة تخدم بقاء النظام، والأمن هو كل شيء، هو السلطة والاقتصاد والثقافة والإعلام والتعليم والرياضة هو الكنيسة والمسجد والصنم والحزب والمدرسة والحديقة... هو القبيلة والأسرة والفرد والرجل والمرأة والطفل... إنه النظام!.

بات الأمرُ واضحاً رغم شدة غموضه، فلماذا أتعامى عن الحقائق الباهرة!!؟

توجهتُ صوب مكتب الوكالة، دخلتُ بهدوء وبرود، رحب بي سكرتير المكتب وكأنه يعرفني ونـاداني باسمي، وأدخلني إلى غرفة ماركو الذي كان ينتظر عند الباب، ودخل معي إلى مكتبه لأجد رجلاً نحيفاً أصلع أسمر البشرة معتدل القوام يمدّ يده واقفاً مبتسماً يرحب بي، ويعرّف نفسه بأنه مدير المركز الثقافي للدولة التي يتبع لها مكتب الوكالة، وأنه المسؤول الفخري لمكتب هذه الوكالة كما جرت العادة، ثم بادر الحديث إلى التحقيق الصحفي الذي أنوي كتابته، وقال إنه اتصل بإحدى كبريات الصحف الأوربية، وعرض عليهم الأمر فوافقوا على نشر المادة وكتابتها باسمي فهذه الموضوعات يرحّب بها الغربيون كثيراً، وأما المكافأة فسيتم تحديدها بعد إرسال المقالة لكنها لا تقل عن ألف دولار في العادة إذا كان التحقيق مميزا وخاصاً - كما قال-.

شكرت مضيفي الأجنبي، وأبديت زهدي في هذا العرض، واعتذرت عن قبوله بينما كان الأجنبي والكيني ينظران إليّ بريبة صفراء باسمةٍ.

لم أكد أبتعد عن مكتب الوكالة حتى فوجئت بمجموعة رجال مسلحين يحيطون بي، ويطلبون مني برفق أن أذهب معهم لجهاز الأمن وأخرجوا لهم بطاقات مروّسة تثبت انتماءهم للجهاز، فلم أملك إلا أن أركب معهم في سيارة بيجو مدنية، وكان الارتباك والخوف يسيطران علي رغم تذكّري

لكلمات الرائد حسين بأنني سأجد بعض المتاعب، فخفف ذلك عني بعض الخوف وقررتُ أن أنسجم مع الدور، وعندما هممت بالسؤال وتحركت شفتاي له طلب مني مجاوِري في المقعد أن أصمت وسأعرف كل شيء لدى وصولي.

كان مكتب الجهاز قريباً جداً من مكتب الوكالة وكنتُ كثيرا ما أمرّ بهذا البناء القديم الذي يعود عهده إلى أيام الإنجليز وأنا أنظر إليه من نافذة الحافلة التي أركبها يومياً.

دخلت مع مرافقيّ الذين أمسكوا بعضدي من الجهتين وكأنني معتقل إلى هذا البناء ذي السطوح القرميدية المائلة ودخلتُ غرفة قديمة يجلس فيها رجلان يحتسيان الشاي فوقفا وأدّيا التحية العسكرية لأحد أفراد المجموعة، ثم وجدت نفسي أمام حديقة خضراء تتوزع فيها أشجار الجوافة المتيبسة الأوراق والمصفرّة كصفرة الرمل الذهبي، تنمو تحتها شجيرات الريحان التي يغالبها الاصفرار من انصراف الاهتمام بها وسقايتها، وطفتُ حول الحديقة لأدخل غرفة كبيرة ليس مكتوباً على مدخلها أي وصف كما هي حال الغرف الأخرى، ووقف على بابها شخص بلباس مدني أخضر البشرة متوسط القامة فأدى التحية، وأدخلني وحدي إلى الغرفة.

كانت الغرفة فارغة إلا من كرسي حديدي قديم وكان مقعده من الحديد الملحوم فدخل في روعي أن هذه غرفة تعذيب فبدأت بالطرق

العنيف على الباب فور زجّي في الغرفة وإيصاد الباب من ورائي، وقد حبستْ عيني دمعةَ ألمٍ غاضب، فدخل عليّ الرجل الأخضر غاضباً وطلب مني الهدوء والجلوس على الكرسي، وكان يحمل بيده دلو ماء بلاستيكي، فقذف ماء بارداً على وجهي فور أن هممت بالجلوس بينما كانت عيناه تنخفضان مع رأسه، فشعرت بقذيفة الماء تلك كأنها صفعة حامية، جعلت وجهي يحمرّ خوفاً، ثم كدت أفقد توازني ومال جسدي عن الكرسي وسقطتُ مغشياً علي كمن أصيب بجلطة قلبية أو ذبحة.

استيقظت من غشيتي بعد برهة من الزمن، لا أدري كم طالت! بل لعلها لم تكن برهة!، فوجدت نفسي على سرير خشبي وفراش إسفنجي رثّ، وحولي ثلاثة رجال أحدهم الذي صفعني بالماء، ورجل آخر كانوا ينادونه بالطبيب، وشخص ثالث بلحية خفيفة يحمل ابتسامة صفراء بادرني بالقول:

- لم نكن نظن أنك طريّ لهذه الدرجة! أهكذا يفعل بك الماء؟!

- ماذا فعلتُ؟ ولماذا اعتقلتموني؟ ولماذا أنا هنا؟ .

- لا بأس عليك، نعتذر أولا عن طريقتنا في استدراجك إلينا وإيذائنا لك فقد كانت الطريقة التقليدية للحديث معك، ولكي نضمن ألا يكون هناك من يتابع تحركنا.

- ولكن ماذا تريدون؟ أنا صحفي ولا علاقة لي بأي شيء!!

- تمهّل!! نريد أن نعرف فقط ما علاقتك بماركو والرجل الذي قابلك

في مكتبه؟

- أنا!! لماذا!!؟

- الدبلوماسي الأجنبي الذي قابلته في مقر الوكالة ينسق مع الموساد (جهاز المخابرات الإسرائيلية الخارجية) ونريد أن نعرف علاقتك به.

- كنت في مهمة صحفية، ولا دخل لي بهذه الأشياء ويمكنكم التأكد من الأمر، كما أنني لم أوافق على عرضهم!

- يبدو أنك لا تريد التعاون معنا!! فهذا الدبلوماسي لا يتحرك إلى هذا المكان إلا للقاء عملاء!!

- هذا ظلم وخطأ كبير!!، وأنا لا أقبل هذه الطريقة في الاعتقال!!

- ستتكلم شئت أم أبيت!!

ثم أعطاني ظهره ونظر إلى رفيقيه وهز رأسه وكأنه يعطي الإذن بشيء، بينما بات يخالجني خوف حقيقي من هذه التصرفات..

ما إن خرج الثلاثة حتى دخل أحد الأشخاص يحمل في يديه طبق فول مرشوش عليه طبقة من الجبنة البيضاء المقشورة ويحمل في يده كيسين صغيرين يحوي أحدهما قليلا من زيت السمسم، والآخر يحوي سائلا أحمر فيه شطة حمراء مغطّسة بماء الليمون الزهيري.

كانت الدنيا تسود في وجهي، فأنا الذي لم أصدق كيف نجوت من حادثة الطائرة، ثم من مغامرة الموت التي خضتها في الأدغال، فإذا بي اليوم أمام استخبارات إقليمية وعالمية وأصبحت بين عشية وضحاها

داخل لعبة هذه الأجهزة الغامضة سيئة الصيت، والمؤلم في هذا كله أنني فقدت فرصتي في العمل التخصصي الذي أتقنه، إذا شاع أنني طرف في هذه القضية الشائكة التي تمتد إلى كل تلك الدول.

لم أكد أبتلع - أثناء تفكيري المرهق - بضع لقيمات من هذا الفول حتى غَصَصْتُ بها إثر دخول مجموعة رجال عليّ فأوقفوني وأمسكوا بذراعي وتحركوا بي خارجاً وهمسوا لي: نحن في طريقنا لصاحبك العميد!! فضعتُ بين استبشاري بأن أصدقائي يتابعونني من بعيد، وبين خوفي من أنه كمين جديد!.

أقلّتني سيارة مقفلة، لم أستطع أن أنظر من نوافذها التي انسدلت الستائر عليها، كما أنني جالس بين رجلين ضخمين في المقعد الخلفي، حتى وصلنا إلى فيلا كبيرة مغطاة الباحات، تحيط بها حديقة خضراء تنتشر فيها الزهور والرياحين وفيها نوافير اصطناعية وشلال صناعي، مما يوحي بثراء صاحبها أو نفوذه.

دلفتُ مع مرافقيّ إلى صالة الفيلا وشاهدتُ وجوهاً جديدة لم أرها طوال رحلتي المضنية:

- أنا الرائد مبارك وهذان زميلاي مختار ومحمد طه.

- مرحباً، أرجوكم أريد الخروج والانتهاء من الأمر!!.

- نحن نأسف لما جرى لك لكن الظروف حكمت عليك أن تكون طرفاً في القضية ولولا خطورة الأمر لما تجاوزنا أصول العلاقة معك، ولكننا

أمام وضع طارئ ولا مجال للأخطاء فيه أو التأخير.

- حسناً دعونا ننتهِ من الأمر!

- إليك خلاصة ما وصلنا إليه: تأكدنا تماماً أن العينة التي أحضرتموها من الأدغال هي لنفايات نووية مطمورة في تلك الناحية، ومن الواضح أنها لا تخضع لشروط السلامة، ويبدو أنها مدفونة هناك منذ عشر سنوات أو أكثر، ونقدّر أن ذلك كان صفقة بين الإسرائيليين وإحدى مجموعات حركة التمرد التي لا تعرف خطورة هذه النفايات، فقد أغراها المقابل المجزي الذي عرضته إسرائيل عليهم، وقد كانت معلومات هذه الصفقة بطرف الجهاز منذ سنوات، وكانت أجهزةٌ عدةٌ تؤكد لنا حدوثها، ولكننا لم نملك طرفاً للخيط، وها نحن وصلنا للطريق وليس للخيط فقط، وأما شتاينر فهو مرتزق ألماني الأصل يحمل الجنسية الإسرائيلية، وهو تاجر سلاح قديم له علاقات واسعة مع الأفارقة في وسط إفريقيا وشرقها، ولديه شبكة استخبارية تتعامل معه من الأمريكان والأوربيين والإسرائيليين، وتأتي خطورته أنه أصبح أخطر عملاء الموساد في هذه المنطقة، وهو ليس مجرد عميل فقط، بل هو ملك السلاح المهرّب والصفقات الخطيرة، ووقوعه في أيدينا يعني أن أجهزة عالمية كثيرة ستتدخل في هذا الشأن حتى لا تتكشف أسرارها، ونحن نخشى من محاولات اختطافه، لذلك نريد أن ننهي ملف التحقيق وجمع المعلومات في أسرع وقت ممكن، ولا نخفي عليك أن العمل في هذه القضية خطير جدا، ولا يَسْلَم صاحبه،

لذلك قررت رئاسة الجمهورية منحك كل ما يلزم للحفاظ عليك وعلينا أيضاً.

- يبدو أننا ضعنا!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

- لا تخش شيئاً فالأمور تحت السيطرة وستدخل معنا الآن إلى شتاينر ولا نريد منك أن تسأله سوى بضعة أسئلة شخصية لنخلق علاقة حديث معه فهو لا يتكلم أبداً.

- ولكن هل سأظل دائماً تحت هذه الحماية!؟

- هذا الأمر راجع للجهات العليا.

كان شتاينر في قبو فسيح أسفل هذا البناء الجميل، دخلتُ إليه وقد قُيِّدَت يداه وقدماه بسلسلة طويلة واصلة إلى حلقة حديدية في الأرض وهو على أريكة وثيرة وقد أسند رأسه إلى رأسها متجاهلا حراسه المسلحين الذين يحيطون به، ولم يلتفت لوقع أقدامي، ولكنه انتبه من هيئته وأطلق عينيه الحمراوين لمّا ألقيت عليه تحيته بالعبرانية (شالوم)، لكنه عاد إلى هيئته الأولى فور أن شاهدني، ولم يقل إلا كلمات بالإنجليزية يطلب فيه أن يلتقي بمسؤولي الأمم المتحدة.

كان الرائد يتابع المشهد من كاميرات خاصة تنتشر في أنحاء الفيلا، وقد لفت انتباهه تلك الحركة التلقائية التي تحركها شتاينر لما حييته بالعبرية، فهذا السلوك التلقائي يؤكد معلوماته بأنه شتاينر الشخص الخطير المطلوب.

كنت أدخل عشرات المرات يومياً إلى شتاينر وأحاول محادثته منفرداً أو مع الرائد مبارك، ومضت أيام طويلة صعبة دون نتيجة سوى الانهيار العصبي الذي لحق بي من جراء هذا الحبس الإجباري، وانقطاعي التام عن الحياة الطبيعية، وعيشي في أجواء القلق والخوف لاسيما أنني أعمل في مجال غريب عني أصلاً، وقد نقلوني آخر الأمر إلى مشفى الشرطة الخاص للعلاج بعد أن ساءت حالي جداً، وصرت أهذي بلا وعي، ووضعت في المشفى داخل جناح خاص معزول بحراسة مشددة خشية تسرب بعض الكلمات التي أهذي بها وجعلوا على علاجي طبيباً خاصاً فرزوه من الجهاز.

لم تكن حالي تتحسن، بل كان وضعي يشير إلى تدهور خطير، لأن الظروف التي تسببت لي في هذه الحالة لا تزال على حالها من الحبس والعزل وتشابه الوجوه وشدة الضغط.

أمضيت أسبوعاً من العلاج المتواصل تحسنت حالي قليلاً، لكنني لا أزال أعاني من صداع قاسٍ يطرق رأسي طرقاً وشرود ذهني يخرجني من واقعي، ثم لا ألبث أن أعود إليه.

نقلوني إلى الفيلا مرة أخرى مع ذاك البلاء الممدّد المقيد، فوجئت بالرائد مبارك يدخل عليّ ويهنيني بالسلامة، ثم بدا لي أنه يود أن يفاتحني في أمر ولكنه لم يجد المدخل المناسب:

- هل هناك جديد أيها الرائد؟

- لا تقلق! أمور صغيرة تحت السيطرة لكن هناك أمر يخصك وقد يزعجك... لكنه ليس ضاراً!!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!! قل لي بربك!!

- الأمر هيّن صغير، اضطررنا لإبلاغ أهلك أنك توفيتَ، وأن جثتك مفقودة!!

- لماذا؟ هل تنوون قتلي لئلا ينكشف خبر شتاينر!!!؟

لا لا!! كانوا يزعجوننا باتصالاتهم فوجدنا أن هذه هي الطريقة المثلى لإبعادهم.

- أنت لا تعرف أهلي، سيأتون إلى هنا ويكشفون كل شيء!

- لقد حدث هذا وحضر شقيقك وكلفنا أحد الرجال باستقباله ورعايته، وقد عاد أمس بعد أن استلم شهادة الوفاة الرسمية.

- أنتم أوغاد حقاً!! لماذا تفعلون هذا؟ ألم أفعل كل شيء تطلبونه؟

- اصمت فأنت الآن في وضع صعب ويجب أن نحميك، افهم واستعد للمهمة التالية.

- أية مهمة هذه لن أفعل أي شيء بعد الآن أريد العودة لأهلي وبلدي!!

- ستموت فوراً لو فعلت وسينكشف كل شيء، عليك فقط أن تكون مستعداً، أنت غير موجود رسمياً لذلك ستكون في حماية الموت!! وضحك بخبث وخرج وهو يلوّح بيده من وراء ظهره.

بدايات ونهايات

وصلت جهود المحققين مع شتاينر إلى طريق مسدودة، وزادت الخشية من عدم إمكانهم الاحتفاظ بهذا المتهم الخطير، لاسيما إذا تحركت دول كبرى للمطالبة به إذا تأكدت من وجوده هنا كما أنه لم يُقرّ حتى الآن بأي شيء يدينه، وكل ما في ملفه الآن ارتكاب جناية تهريب السلاح إلى مناطق التمرد وهو ملف قضائي جنائي يمكن أن تستخدم فيه أدوات سياسية ودبلوماسية للضغط على الحكومة لأجله، وستكون هذه كارثة أمنية.

كانت الإشاعات تكبر عن وجود أجنبي مختطف، وربما كان متورطاً في دعم المتمردين وكان مصدر هذه الإشاعات مكاتب مخابرات أجنبية بلافتات دولية وصحفية وإغاثية مختلفة فهم يحتاجون إلى أي خبر.

في المقابل كان جهاز الأمن الخارجي يشك في احتمال تسرب المعلومات الخاصة بشتاينر إلى هذه الأجهزة، في الوقت الذي بدأت فيه تقارير منظمات حقوق الإنسان الأمريكية تتحدث عن وجود معتقلين أجانب - دون أن تذكر أية أسماء - يجري تعذيبهم في بيوت الأشباح التابعة

للأجهزة الأمنية؛ مما يعني أن الحملة لتحرير شتاينر قد بدأت.

في منتصف الليل حضر الرائد مبارك ومعه رجلان متينا البنية إلى الفيلا الجميلة التي يُحتجز فيها شتاينر، ودخلوا عليه وأمسكوا برقبته وهو مقيد، وأجبروه على تنشّق مادة مخدرة جعلته يغيب عن الوعي ثم استاقوه بهدوء إلى سيارة جيب مغطاة وتحركوا به إلى شارع المطار على مسافة غير بعيدة من مقر الجهاز، وأدخلوا الجيب إلى مرآب خاص للسيارات في فيلا صغيرة في شارع داخلي يتفرع عن شارع المطار ثم حملوا شتاينر وربطوه إلى حلقات حديدية لها سلاسل طويلة تمكنه من الحركة المحدودة داخل غرفة داخلية صغيرة بلا نوافذ، تحوي حماماً إفرنجياً بلا باب، وكانت الجدران مغطاة بجدران بلاستيكية ينسدل عليها قماش أخضر وكأنها غرفة معزولة عن الصوت والضوضاء، ولم يكن فيها سوى فراش إسفنجي ووسادة وسجادة كبيرة قديمة حمراء.

ولم تكن الحراسة مشددة على هذه الفيلا إذ لا يوجد سوى شخصين يتناوبان على حديقة الفيلا الداخلية وشخص ثالث يراقب شتاينر ويعمل على تقديم خدمات الشراب والطعام له.

في مقر الجهاز كانت الأخبار تنتشر عن نقل أحد المعتقلين الأجانب إلى جهات التحقيق العدلية، وانتشر خبر يقول إنه تم تسليمه إلى سفارة أجنبية بينما أشاع آخرون أنه قد أُفرج عنه، ويتحدث آخرون عن أنه موجود الآن في مقر مكتب الأمم المتحدة الإقليمي...، ولم يعرف أحد

حقيقة ما جرى إذ كانت الخطة تقتضي نشر إشاعات متضاربة عن مكان اختفاء شتاينر.

كان شتاينر يثير الضوضاء والصياح كعادته ويضرب الجدران بكل عنف حتى احمرت يداه وقدماه وجوانبه، وقَرَتَ دمه وتيبّس بين جلده ولحمه، ولكن لا مجيب سوى الحارس الذي يدخل عليه بنظرات غاضبة ينبهه إلى أن أحدا لن يسمعه ويدير له ظهره صافقاً الباب وراءه بقوة ترِنّ في أذن شتاينر فتزيد غضبه، وإذا لم يكفّ فهناك إبرة مهدئة تجبره على النوم بلا رحمة.

بعد ليلتين عصيبتين على شتاينر دخل الرائد مبارك وصاحباه القويان غرفة شتاينر وقد خارت قواه وارتخت أعضاؤه كلها، وطلبوا منه أن يستمع لهم، فخضع لهم وجلس وهو يرمقهم بنظرات حاقدة، وبادره الرائد مبارك بالقول:

- هذه فرصتك الأخيرة لتتكلم ثم لا نضمن لك أن تبقى حياً أو سليماً!

- ليس عندي ما أقوله!

- ولكننا نعلم أن لديك الكثير الكثير لتقوله!

- قلت لكم ليس عندي شيء!

- حدثنا عن طائرة الأسلحة على الأقل!

- أنا موظف أممي، وأمارس عملي الرسمي ويجب أن تسلموني إلى الأمم المتحدة!

- بعيدة عن شواربك! قالها الرائد مبارك بغضب.

وعلى الفور قام الرجلان المرافقان بالإحاطة بشتاينر وتخديره، فهوى بسرعة نتيجة التخدير وتراكم الإجهاد عليه، ثم وضعه الرجلان في تابوت خشبي وأحكما إغلاقه بأقفال فضية، ورفعاه إلى صندوق سيارة «بيك أب» مغطّاة، وانطلقت بهم صوب المطار ترافقهم سيارة تخص الرائد مبارك وأحد رجاله.

كانت إجراءات دخول المطار سريعة ومهيأة وتمت دون أي توقيف حيث دخلت السيارة إلى مدرج المطار مباشرة، وتوقفت بجوار طائرة ركاب صغيرة، وحملوا التابوت إلى الجسر المتحرك الذي أودع التابوت في الطائرة، وما لبثت أن طارت بسرعة بعد توقف كامل لحركة الطائرات المقلعة والهابطة خلال تلك الساعة، وكانت الوجهة مجهولة.

هذا فيما تواصلت وتكاثرت الأنباء الصحفية الأجنبية عن اختفاء الرجل دون أن تذكر اسمه وتحدثت الصحافة الأجنبية والتقارير الحقوقية عن تورط حكومي في تعذيبه، وتأكدت الاستخبارات السودانية أن أجهزة المخابرات العالمية ليست لديها معلومات أكيدة عنه حتى الآن، وأنهم لا يريدون الكشف عن هوية عميلهم التاريخي مما يدل على نجاح العملية أمنياً، وبقي الآن الدور الإعلامي والسياسي الذي ينفي وجود أي معتقل أجنبي في المعتقلات سوى بعض المعتقلين الجنائيين على ذمة التحقيق، ويمكن لسفاراتهم أن تتابع ملفاتهم حسب الأصول.

واستمرت الحملة الإعلامية الأجنبية شهرا وأياماً ثم بدأت بالخفوت تدريجياً بعد انقطاع الأخبار تماما عن شتاينر وتضارب الأنباء عن أماكن وجوده وأسباب اختفائه، وبقي ملف شتاينر مفتوحاً ولكن على المجهول دون أن تصل إلى علامة تشير إلى خبر مفيد عنه.

❖ ❖ ❖ ❖

أما أنا فقد بقيتُ محتجزاً في هذا السجن الجميل، إنه مقبرتي الإجبارية!، فأنا ميت رسمياً ولا أتصل بالمحيط من حولي إلا من خلال الرائد مبارك الذي كان يزورني كل يومين، ثم كل أسبوع، ثم بات ينقطع عني طويلاً، أقطّع الوقت بمرض الملاريا الذي كان صديقاً وفياً لا يفارقني، لاسيما أن هذا المكان رغم جماله إلا أنه غارق بالماء كأنه مستنقع، وهو البيئة المثالية لتوالد البعوض وأنثاه اللئيمة التي تحمل طفيل الملاريا البغيض، كانت الحمى تلازمني وتبيت في عظامي، تفكّك مفاصلي، وترميني على ظهري، أنتظر دواء الفنسدار ثم حقنة الكينين، والطريف أن من يصف دوائي هو من يغسل الفيلا وينظفها ويسقي أزهارها ويزيد من ماء مستنقعاتها، فالملاريا مرض الشعب الذي يسجل حضوره حيث كان الإنسان هناك.

اليوم كنتُ في عافية، وحالي أفضل من أيام أخرى خلت، وأنا أعدّ أيامي عدّاً في مقبرتي الجميلة، ولم أكن سعيداً عندما دخل علي الرائد

مبارك فهو شخصية بتُّ أكرهها ولا أطيق رؤيتها فهي لا تختلط إلا بذكرى سيئة معه ولكن المفاجأة التي حملها لي أن هناك ضيفاً يريد زيارتي!!

كان قلبي يخفق مضطرباً، من عساه يكون، قد يكون أي واحد من هذا الجهاز، ولن يأتوا بضيف من خارج جهازهم، لكنني بالتأكيد لستُ فرحاً بذلك، فهذا الضيف ومبارك وشمس الدين قاموا بإلغاء حياتي وشطبها من الوجود، فلماذا أبتهج له؟!،

نعم!! ها هو ذا!! إنه النقيب الضوا

هو أفضل من غيره، لقد أنقذ حياتي مرةً، وعشتُ معه أياماً بائسة، صافحتُه ببرود، لكن مبادرته بالعناق الحار جعلتني أشعر بدفء قد يكون صادقاً، فمضيتُ أشكوه وأشكو له، وعيني في عينيه، سوء حالي، وموتي في حياتي.

- اليوم جئنا لنخرجك مما أنت فيه، الظروف مهيأة لننهي ما بدأناه.

- الحمد لله، أخيراً، متى، أخبرني بالله عليك!!

كنتُ أنهارُ حينها، وكلماته المفاجئة بدأت تقشع سقوف القبر من فوقي، ورأيت الضوء لأول مرة منذ سنوات طويلات يتلألأ أمامي، وأرى الألوان: الشجر أخضر، والموز أصفر، والليل ليل، والدنيا تعود للخفقان والحركة.

- هناك أسئلة كثيرة أريد طرحها، دعوني أسترح!!

- لن تجد جواباً على أسئلتك لأنني لا أعرف الأجوبة مثلك لكنني

أعرف أن الحاج عثمان حي يرزق، وأن رفيقك سيف الدين رحل عن هذه الدنيا في رحلة الطائرة، وأن شتاينر اختفى بين اللاعبين الكبار.

- ومنقو!!؟

- هذا الرجل قرد، فقد بعض أصابعه، وأصيب ببعض الكسور، وهو يعمل ناطوراً في بناية مدنية نائية... لكن!!.

- ولكن ماذا؟

- عليك أن تختار بين بقائك ميتاً وتعيش في هذه الدنيا غريباً يتيماً بلا أهل، أو تبقى منسياً في هذا المكان وربما في مكان آخر سيكون سيئا لك!!

- ماذا تقصد؟

- ظهورك حياً سيكشف كل شيء، وسيتعرض أهلك لما لا ترغب به، وإذا أردت حمايتهم فعليك أن تتناهم، فأنت الآن ميت، ولا أنصحك بأن تتفجع بهم، وسنبقيك على معرفة بأخبارهم - ولكنني لا أعدك بالمتابعة -.

- كيف سأعيش إذن؟

- ستعيش في ولاية نائية بعيدة عن الخرطوم، سنفتح لك معملاً للعصير، ونمنحك الجنسية، باسم آخر!!.

- هل هذه النهاية؟

- لا إنه خيارك الوحيد للبقاء خارج المقبرة إلا إذا!!!.

- إلا ماذا؟

- هناك مهمة سهلة في «التابوت» تنتظر الرجل فاتح البشرة!!!؟

- يبدو أنني بتّ أعرف أكثر مما يجب!!!

- هل أنت موافق!!؟ - بحزم -

- وهل يبدو أنني مختار!؟ ؛ ولكن: هل لكم أن تمنحوني نظرة إلى موطني لأسلّم على ظلّ أمي؟.

- بعد عودتك من التابوت - ليس لدينا وقت -!.

- هل سأعود؟

- قد تعود فيه!!